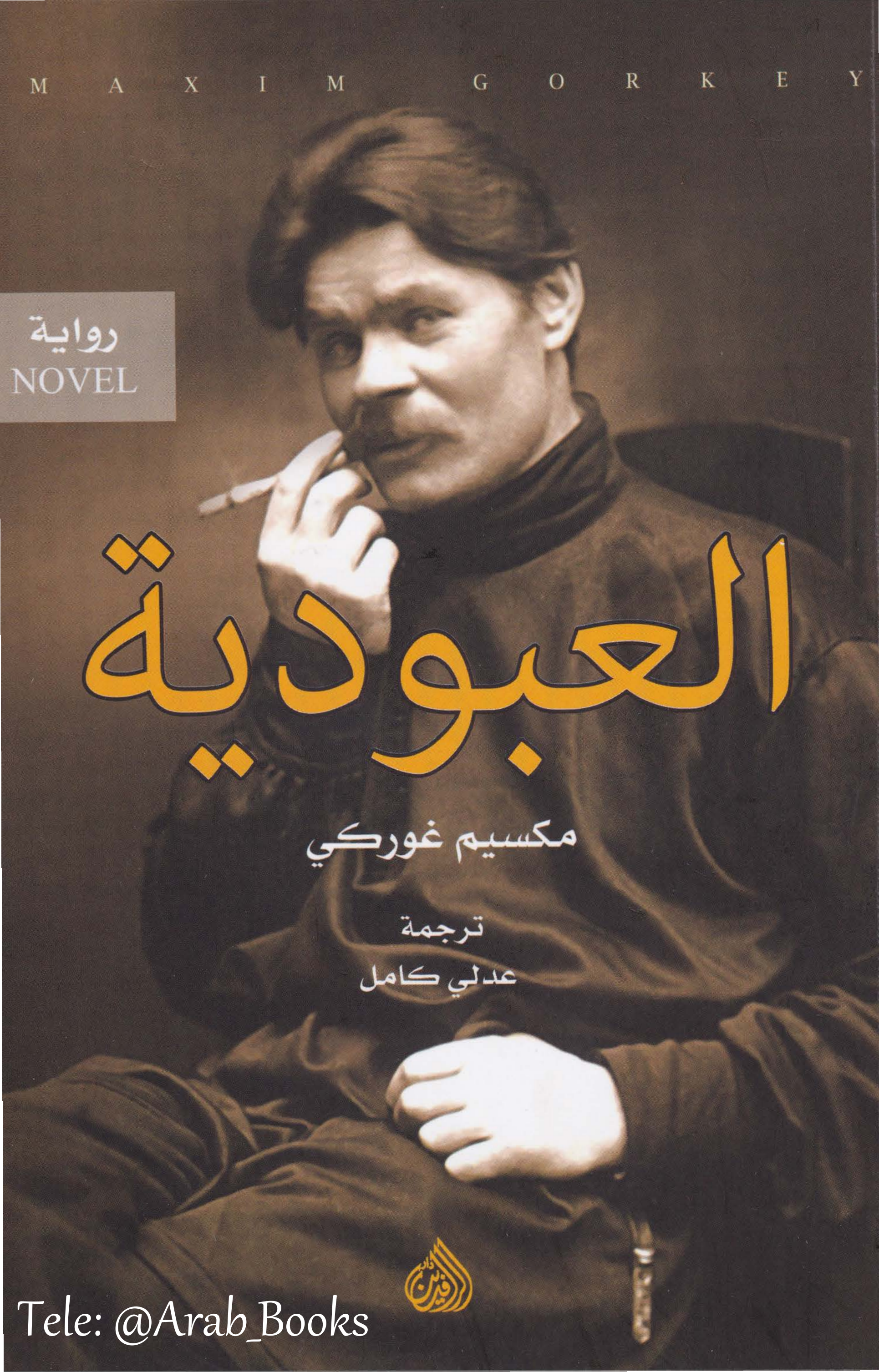


MAXIM GORKEY
رواية
NOVEL
العبودية
مكسيم غوركي
ترجمة
عدلي كامل
دار الرافدين

العبـــوديـــة



العبـــوديـــة
The Slavery

مكسيم غوركي

ترجمة: عدلي كامل

الطبعة الأولى: بيروت ـ لبنان، 2017

First Edition: Beirut - Lebanon, 2017



لبنان ـ بيروت / الحمرا

تلفون: 751055 1 961+ / 541980 1 961+

daralrafidain@yahoo.com

info@daralrafidain.com

www.daralrafidain.com

dar alrafidain

Dar.alrafidain1

DAR ALRAFIDAIN@maassourati

ISBN: 978 - 1 - 77322 - 098- 7



رواية

العبــوديـــة

مكسيم غوركي

ترجمة:

عدلي كامل



www.daralrafidain.com



إهداء:

... إلى يقظة قوى الخير في مصر

نهدي هذا الكتاب.




Arab_Books

مقدمة:

لعلك توافقني في الرأي حين أقول: إن غاية الأدب هي أن يعين الإنسان على: أن يفهم بنفسه، وأن يؤمن بنفسه، وينمي فيه الطموح إلى الحقيقة، وأن يكافح نوازع الشر في طبيعة البشر، وأن يرشده إلى جانب الخير فيهم، وأن يستثير في نفوسهم جانب الطيبة، والغضب لوقوع الشر، والشجاعة كيما يصبح الناس أقوياء عن سماحة خلق ويستطيعون إثراء حياتهم الروحية بكل ما هو جميل...

ذلك هو أسلوبي في التفكير... حقاً، إنه لا يبلغ درجة الكمال، فإن هو إلا مجرد تخطيط عام... املأه إذن بكل ما من شأنه أن يثري الحياة، ثم أنبئني أنحن في الرأي متفقان؟

مكسيم غوركي




Arab_Books

عند مروري بزقاق المسرح كنت أشاهد، في كل مرة تقريباً، رجلاً قابعاً عند باب دكان صغير حشر حشراً في جناح خشبي عتيق، رجلاً يبدو أنه غريب وغير مرغوب فيه...

في هذا الزقاق، المظلم المترب السماء، من المدينة.

كان أحياناً يقتعد كرسياً بالباب يقرأ في جريدة، أو يقف مستنداً إلى قائمة الباب ويداه معقودتان على صدره، وفوق رأسه تعلن لوحة صغيرة، بحروف سوداء اللون، مائلة، أن في هذا الدكان تُباع أدوات الكتابة. بينما يعرض خلف ألواح الزجاج الداكنة رُزماً من الظروف والمفكرات ومجموعات من طوابع بريد قديمة رُصّت فوق مربعات من الكرتون.

كنت أقف أحياناً أمام واجهة الدكان متظاهراً بالتفرج على هذه المعروضات التافهة المتربة الكالحة اللون، بينما أرقب خفية صاحب الدكان وهو مستغرق في تأمل نوافذ البيت المقابل ـ كان مبنياً من الطوب الأحمر، عتيقاً متهدماً، في واجهته صدع متعرج، وبكل من طابقيه أربع نوافذ داكنة يغطي إفريز كل منها «زبل» الحمام الذي يغطي أيضاً تلك اللوحة الصدئة المعلقة فوق نوافذ الطابق الأرضي.




Arab_Books

موشـــــنك

«خياط»

ربما كان عمر هذا البيت مائة عام.

كان الزقاق كله يتكون من صفين داكنين قذرين من أمثال هذا البيت العتيق، وكل منها يلتصق بالبيت الذي يليه.

أما الرجل فكان يرتدي سترة رثة فوق جسد نحيل لكنه ممشوق، وينتعل حذاءً بالياً وإن كانت قدماه تبدوان صغيرتين حسنتي التكوين، أما وجهه فكان في إطار من لحية رمادية كثيفة سويت باعتناء. وفوق جمجمته المستطيلة شعر رمادي مشط إلى خلف أذنيه الصغيرتين الجميلتين، كان شعره بادي النعومة يلتصق بجلد رأسه كأنما قد لصق بالغراء. كان في طريقة تمشيطه لشعره شيء من «التفنن» غير أنها لم تكن تلائم وجهه النحيل المستطيل، وهذا هو السبب في أن أنفه الطويل البادي العظام كان يبدو ناتئاً لدرجة تدعو للرثاء. أما عيناه فكانتا غريبتين: المقلتان زرقاوان، والحدقتان بلون الصدأ، كما كانتا ضيقتين ونظرتهما الباردة الثاقبة تستقر على الأرض.

في بعض الأحيان، كنت أقف أمام واجهة الدكان خمس دقائق أو أكثر، أنتظر هذا الرجل أن يسألني ماذا أريد، لكنه لا يبدو عليه أنه لحظ



وجودي ويظل واقفاً دون حراك، معقود اليدين فوق الصدر، محاطاً بسحابة من الوجوم كانت تثير فيّ حب الاستطلاع. فيم كان يفكر؟ لِمَ كان حزنه؟

وكثيراً ما كان يهرع التلاميذ إلى دكانه لشراء طوابع بريد، فكان يستقبلهم على مضض، ويقتضب في محادثتهم كما لو كان يؤدي عملاً لا يخصه، وكنت أدخل دكانه لأبتاع ظروفاً، فكان يستقبلني الاستقبال نفسه، ويلف رزمتي ولا يلبث أن يذكر الثمن، ثم يعقد يديه على صدره، وواضح أنه كان ينتظر بعد ذلك انصرافي.

- أنت هنا منذ زمان؟

- أجل.

- مكان ناء..

- هو ذاك.

- أعندك عملات قديمة؟

- لا.

كان واضحاً أن الرجل لم يكن يرغب في الحديث. لكني لمحت فجأة بطاقة بريد ـ صورة امرأة تستوي على كرسي ذي مسندين، ثغرها نصف مختفٍ تحت مروحة من ريش النعام، وعيناها باسمتان في دلال لا يخلو من سخرية... ووجهها مثير تنطق قسماته بالشهوة. وبأسفل البطاقة كتب: «لاريسا أنتونوفنا دوبرينينا، الممثلة الشهيرة على مسارح المدن». كما لمحت بطاقة بريد أخرى بدت فيها السيدة نفسها في دور «أوفيليا» تحمل باقة من الزهور، وتبتسم ابتسامتها تلك الغامضة لكن في غير دلال. وفي صورة أخرى بدت في دور «ماري، ملكة اسكتلندا» في رواية «نورا». وفي كل الصور، كانت الابتسامة نفسها على شفتيها الممتلئتين فاصلاً حاسماً ما بين أعلى وجهها وذقنها العريض المدبب بعض الشيء.



«كانت هنا في أوج مجدها!» قالها صاحب الدكان بلهجة تنم عن اقتناع مشيراً بإصبعه النحيل الشاحب إلى صورتها وهي جالسة على الكرسي ذي المسندين. ثم أضاف قائلاً في زهو: أنا الذي طبعتها!

قلت: لم أسمع عنها قط. فهز كتفيه وعلى وجهه أمارات الاستياء من تصريحي وقال:

- مع أنها كانت شهيرة جداً. كانت لامعة الاسم.

وذكر أسماء عدة بلدان حيث أحرزت الممثلة «نجاحاً هائلاً». وبنغمة احتقار لجهلي، وصف لي حياتها كما تسرد الأنباء في الصحف. كان يتكلم مغمض العينين كأنما يستظهر درساً محفوظاً.

- أهي على قيد الحياة؟

- لا. ماتت.

- منذ زمن؟

- تسعة أعوام.

لا شك أنه كان رجلاً شاذاً. والشواذ يجملون الكون. لقد صممت على أن أتزيد من تعرف حقيقة أمره، ووفقت إلى ذلك، وهاك ما قصه عليّ هذا الرجل العجيب.

* * *

لكي تقف على موضع الحزن من قصتي يجب أن أبدأ بها منذ زمن بعيد جداً، منذ طفولتي. كان أبي، كليم تورسوف، تاجر الصابون الشهير، رجلاً حاد الطباع لا يميل إلى الاختلاط بالناس، ناقماً على الحياة رغم ثرائه ورواج تجارته. كان طويل القامة، قوي البنية، كثيف الشعر، يمشي محني الرأس كأن كارثة فادحة قد أعمته. لربما كانت أمي هي السبب في ذلك.



كانت ابنة القائد جورتالوف، من أبطال الحملة التركية؛ مضت عنا وأنا في التاسعة وأخي كوليا في السادسة ولحقت بعازف بيانو شهير، لكنها لم تلبث أن ماتت بعد ذلك بقليل في مكان ما خارج روسيا. إني لأذكرها في ثوب أبيض يحليه وشاح أخضر وزهور، وشعرها الفاحم يستلقي على ظهرها، وغصن من الماس يتوج رأسها. سألتني مرة وهي في هذا اللباس:

ـ أمنظري جميل؟.

وحين أجبت: «نعم، جميل جداً!» مسحت على جبهتي بحنو قائلة:

ـ إنك تراني كذلك، لكنك لا تطيعني ولا تحبني.

ووعدت بأن أكون لها مطيعاً، لكنها مضت في عيد الفصح...

كنا نجلس إلى منضدة في ركن غرفة صغيرة معتمة، تضيئها شمعتان، فوق المنضدة تشتعل كل منهما في شمعدان فضي، ووهج الخمر بلون الرمان يتراقص في قنينة عتيقة من الزجاج. كانت الغرفة مزدحمة بالأثاث، فاسدة الهواء، والجدران ملطخة بصور كأنها يرقات النبات، وكرسي ذو مسندين يلتصق بمدفأة من القيشاني محمرة من الحرارة، ومحدثي جالس فيه، وقد مد ساقيه وعقد يديه على صدره، يتأمل الزهرة الصفراء المشتعلة في كل من الشمعتين. وقيثارة مقبضها محلى بالشرائط، معلقة على الباب الضيق المفضي إلى الحجرة المجاورة ـ وأظنها كانت حجرة النوم. ومصباح في الطريق يضيء من خلف النافذة، والمطر ينهال عليه سهاماً من زجاج. وضوء المصباح الضعيف ينفذ من خلف ألواح النافذة المبتلة، فيظهر صورة زيتية كبيرة للممثلة دوبرينينا، تقوم على حامل، في إطار جمع بين السواد والبياض إعلاناً للحداد، وتتوجها ضفيرة فضية من سعف النخل وورق الغار.



كان جو الغرفة مشبعاً برائحة الفناء. ومن كل شيء كانت تنبعث تلك الرائحة الغريبة التي تكون للزهور بعد أن طال حفظها حتى تتفتت وتتحول إلى تراب رمادي لحظة أن تلمسها... حتى صوت الرجل، ذلك الهش، كان يمكنك أن تلمس فيه هذا الجفاف. كان يتكلم على وتيرة واحدة كأنه يطالع في لوح مكتوب، وتنساب الكلمات من بين شفتيه في آلية وسهولة فتذكرك بذلك التساقط الحزين لأوراق شجرة مسها الصقيع فآن لها أن تطرح كساء الصيف.

عاش أبي مترملاً ثمانية عشر عاماً. فمنزلنا لم يعرف سوى امرأتين عجوزين هما الخادمة والطاهية. كان عابس الطبع فلم يهتم بأمورنا ونحن أطفال. والذي غالباً ما سمعناه، كوليا وأنا، طيلة ثمانية عشر عاماً هو سؤاله الغاضب: «لِمَ هذا كله»؟. كان هذا السؤال يخيفنا.. لقد أقام حائطاً بينه وبيننا، فنشأنا ونحن نتوارى عن أبينا. كان مسكننا يتألف من سبع حجرات كل منها أكثر من الأخرى إظلاماً، فكان من السهل الاختباء وراء قطع الأثاث المختلفة. وألحقني أبي بمدرسة إعدادية لكنه لم يسمح لي بمواصلة الدراسة. كان يقول: هذا يكفي، لتبدأ العمل. لكنه سمح لـ كوليا ـ وكان أنحف مني ـ أن يلتحق بمدرسة ثانوية بل وأن يدرس الرياضيات والكيمياء في الجامعة.

مات أبي فجأة وهو في كامل صحته. ففي يوم حار من شهر يونيو عاد من الكنيسة وشرب جعة مثلوجة، وبعد ذلك بخمسة أيام كان يرقد في تابوته وارم الجسد، ويداه الخشنتان الكثيفتا الشعر متشابكتان على بطن ضخم. كان شكله مخيفاً يفوق كل وصف. ووجهه الثائر منتفش الشعر الأشقر، ممتلئاً بحنقه المعهود حتى خلت أنه قد ينهض ليسأل الأقدار بصوت أجش: لِمَ هذا كله؟ وعطل العمل في المصنع فساد السكون



أرجاء البيت كما كان يحدث أيام عطلات عيدي الفصح والميلاد. غير أن جلبة غير عادية لم تلبث أن انتشرت في البيت: زاد ضجيج الخدم في رواحهم ومجيئهم وعلت أصواتهم. ولاحظت أنهم سُرّوا لموت أبي، وملأني الشعور بالخزي حين أدركت أنني أشاركهم، أنا أيضاً، سرورهم. فلم يكن أحد يتمتع في بيتنا بالحرية إلا الذباب وحده فهو الذي كان حراً. على أيام أبي، ويمكنه أن يئز بأعلى صوت!. كان أبي يسترق الخطا في أرجاء البيت، قد أرهف أذنيه كأنما يتوقع حدوث شيء. فإذا انصفق باب بعنف سهواً، غضب جداً. أما بعد مماته، فقد ظل كوليا وحده ـ وهو الفتى المرهف الإحساس ـ يتحدث فيما يشبه الهمس كما اعتاد أن يفعل في حياة أبينا، ويمشي بهدوء كأنما يخشى أن يوقظ من رقد إلى الأبد.

قال لي بلهجة المغتاظ: ما هذه الضجة التي يثيرها الخدم؟ كأني بهم فرحون!.

ـ علام الغضب يا كوليا؟ أنت تعلم جيداً أنه لم يكن محبوباً. ما أحبه أحد.

فسألني: حتى أنت؟.

قلت: حتى أنا... إني أحب الصراحة.

لم يحر جواباً. وكان يجلس قرب نافذة مفتوحة تنفذ من خلالها رائحة حوامض وصابون وشحم عفن، وتصحب هذه الرائحة جلبة غريبة: كان البواب، وهو تتري ذو عين واحدة يدعى مصطفى يكنس الأرض المشبعة بالشحم الذي وطئ حتى اكتسب صلابة الإسفلت. فيما مضى، وفي غمرة جلبة المصنع المتصلة، لم يكن يسمع هذا الصوت. كان صوتاً كريهاً مزعجاً. أطل كوليا من النافذة وقال: (أوقف هذه الضجة يا مصطفى!). ثم التفت إلي وقال: إنه يمحو ذكرى أبي. ألا تعلم أنه لا يجوز الكنس وفي البيت ميت؟.



اجتهدت أن أواسيه فقلت: الآن يمكننا أن نحيا حياة أكثر هناءة ـ أنا بعملي وأنت بدراستك. لن تحتاج إلى التماس النقود إذا أحببت أن تذهب إلى المسرح، ولن يصرخ فيك أحد: لم هذا كله؟ ربما كنت مخطئاً فيما أقول لكن الواقع أنني لا أتأسف على فقد أبينا. وأنا لا أعرف التصنّع فليس بوسعي أن أذرف دموعاً كاذبة. ألا تذكر كيف قضينا الليل، منذ أسبوع، ونحن نكاد نبكي من الإذلال؟ وكم من ليلة كهذه قضينا؟

فقال ناظراً إلى السماء: كم أرى السماء لا لون لها ولا جمال. إنها كالصفيح. ومصنعنا والدنيا كلها صدأ وقذارة على الصفيح.

مثل هذه الأفكار كثيراً ما كانت تخطر لأخي فتروقني غرابتها. كان يتحدث عن الدنيا في شفقة حزينة كما يتحدث المريض عن جسده لكن أخي كان في صحة جيدة رغم نحوله ورقة بنيانه، وكان في وجنتيه تورد أنثوي خفيف... كان شعره غامقاً متموجاً وعيناه السوداوان ترمقان كل شيء بنظرة تنم عن عدم الثقة والدهشة. وتعلم العزف على البيانو بدون علم من أبينا. لقد كان عذب الروح مرهف الإحساس... مضيت أقول له:

- إن أعظم شيء أتمه والدنا في حياته هو صداقتنا الأخوية يا كوليا. إننا ندين لسوء طبعه بهذه الصلة التي توثقت بيننا لهذه الدرجة وهذه المحبة المتبادلة التي أرجو أن تستمر بيننا إلى الأبد. إني لأعلم أني شخص جاهل بالقياس إليك، ولو أني أكبر منك سناً. إن حياتك تختلف عن حياتي كذا أفكارك مختلفة أيضاً فأنت تحب لهو الخيال. إنني لا أستطيع قط أن أقول ما قلته الآن عن السماء.لا أعرف كيف أقوله. كثيراً ما أتساءل عما يجعلك تقول مثل هذا الكلام وماذا تعني به.

فسألني مغتماً: ماذا أقول حتى تعده مخالفاً للمألوف لهذه الدرجة؟.



- لا تقاطعني! أنت تعلم أنك تحب هذه الدنيا وترثي لها كأنما هي بدونك، بينما أسير أنا فيها سيراً عادياً. ولست أنشد غير ذلك. فأنا أسير الصورة التي عليها خُلقت، لا أفكر في شيء غير المصنع والعمل وخطيبتي. ولذا أخشى أن تمل العيش معي، وهذا الملل قد يؤدي إلى التباعد بيننا. وأنت لا تزال غلاماً لم يَصلُب عودُك بعد، ونحن نجتاز أوقاتٍ عصيبة، فالطلبة ثائرون بكل قواهم. ربما اجتذبتك اتجاهات سياسية خطيرة فتكون هذه نهايتك كما كانت نهاية كثيرين غيرك. أنت تعلم أني أحب خطيبتي، غير أني عندما أفكر أنها ستجد في حياتنا كزوجة لي... علي أن أكرس لها جزءاً من نفسي، عندما أفكر في هذا أخاف. ماذا لو أنك لم ترضَ عنها؟ أنت تعرف المثل القائل: «فتش عن المرأة». ثم قد يأتينا أطفال. فماذا يكون موقفك من هذا كله؟ لذا صممت يا كوليا أن أؤجل زواجي حتى لا تفقدني...

فقال في حزن:

- لا أريد منك أية تضحية.

هذا ما قاله بالضبط. ولكني مضيت أتكلم مستخدماً كل وسائل الإقناع حتى انتهى الأمر بيننا كما أردت: تعانقنا، وأقسم كل منا لأخيه ألا نفترق مهما تكن الظروف وألا يخفي أحدنا عن الآخر شيئاً. على أنني أعترف أنه ـ إلى جانب حبي الصادق لأخي ـ كان في الأمر عدة اعتبارات أخرى: فقد عشت اثني عشر عاماً كحيوان في قفص، لا أرى أو أعرف شيئاً غير ما يتعلق بصنع الصابون. نادراً ما كنت أذهب إلى المدينة، فأبي كان يذهب بنفسه إليها للقيام بحاجات المصنع. أما كوليا فكان قد وعد بأن يكون كيماوياً متخصصاً في مدى سنتين أو ثلاثاً، وكان في طبيعته عناد لطيف خلته من أثمن الأشياء. كان يقرأ أصعب الكتب ـ وفي لغات أجنبية



ـ ويتحدث في السياسة. وباختصار كان يجد متنفسه في صخب الحياة. وأستطيع أن أقول: إن الحياة استغرقت أفكاره بقدر ما امتص المصنع أفكاري ـ وبعبارة أخرى، عالج كوليا الحياة على أنها شاغله الأوحد. ولا أخفي أن شاغله هذا كان شيئاً مثيراً لشيء من السخرية رغم أن أقواله كانت جادة كل الجد. المهم أني قدرت أنني لن أفقد خطيبتي ـ وكانت تهيم بي حباً ـ بينما قد أفقد أخي الذي كان أذكى مني وأقدر على العمل في المصنع. لكن أول الأشياء هو أني كنت أحب كوليا...

كان الرجل يتكلم طوال الوقت على وتيرة واحدة كما لو كان يقرأ «المزامير»، وعيناه مغمضتان. لكنه فتحهما في تلك اللحظة: كانتا حمراوين، تملؤهما الدموع والحسرة.

وعاد يقول: كنت أحبه. وأفرغ في جوفه كأساً من الخمر، ثم مسح عينيه بمنديل وتابع حديثه وهو أكثر انتعاشاً:

حتى نهاية سبتمبر وبداية موسم التمثيل، عشنا كوليا وأنا، في اتحاد دائم لا ينسى، وفي تبادل رأي مخلص، ولو أن أصدقاء كوليا كانوا قد بدأوا يترددون عليه. كان بوجومولوف أحدهم، غلاماً غشيماً فظّاً، في منتهى الذكاء... من الناس من يستوعب الكتب الشائعة ولا يعيش إلا عليها ـ كان هو أحدهم. أغاظني من أول لقاء لأنه بدأ بالحديث عن الحرية، والحرية يا سيدي ليست سوى وهم وخداع. لم ألبث أن تبينت ذلك بعد موت أبي حين عاد إلى العمل في المصنع ودخلت حياتي طريقها المحتوم، ففي حياة أبي كنت أكثر تمتعاً بالحرية رغم خضوعي لمشيئته، إذ إنه لما مات وضح لي أن الحرية تلزمنا في كل لحظة بمسؤولية لا تطاق. السيد بوجومولوف كان يزعم أن الإنسان حر حرية كاملة، وليس لأحد أن يعترض وجوده، وأنه سيد فعاله، وأن العالم كله والحياة كلها بما فيها يتلخصان في



وجود الإنسان وأرى هذا كله خداعاً ولم يكن السيد بوجومولوف يعتقد في وجود الله، وهذا عكس ما يعني اسمه[1]. وكانت أبحاثه جميعاً أكثر عبثاً من طيران السنونو، ذلك الطائر الذي يتخبط في الهواء قرب سطح الأرض كي يلتقط بعوضاً خفياً عن النظر، معتقداً أنه يلاحق صيداً حقيقياً. وحاولت طبعاً أن أثبت للسيد بوجومولوف أن حريته الكاملة هذه ليست سوى عبث خالص، لكنه كان ابن قسيس فكان ذا مقدرة كبيرة على التبشير بآرائه وكان يفحمني دائماً. لقد بدا لي خطراً كصاحب لكوليا. كان كوليا في نحافته وضيق منكبيه وتورده الأنثوي يبدو، بصفة خاصة، صغير السن، عديم الحيلة بجانب هذا الفتى الأسمر ذي الشعر المسترسل... بوجومولوف ابن القسيس. وكان كوليا يصغي إلى أبحاثه في الحرية، بثقة عمياء. أما أنا فكنت أدرك أن الإنسان ليس حراً حتى في نومه، بل وأن سكون قطعة الحجر ليس من الحرية في شيء، لأن قطعة الحجر إنما توجد لحين تحولها ـ هي أيضاً ـ إلى تراب. إن كلامنا عبد وأسير لظروف الحياة المختلفة، والشيطان عبد طبيعته الشريرة، والله ـ إن كان موجوداً ـ عبد أفعاله التي لا يستطيع العقل إدراكها. هذه هي أفكاري عن الحرية...

لفرط ثورته التهكمية، خيل إليَّ أن غباراً جافاً خانقاً كان يتصاعد من محدثي ويملأ أرجاء الغرفة. كل كلمة كانت تشعرني بالاقتناع المظفر لرجل وهبته الحياة من الحقائق عدداً كافياً يبرر به ويؤيد أسلوبه في التفكير. وبذا تكون الحياة معيناً للفكر لا ينضب. وكان لهب الشمعتين ينعكس في حدقتيه الضاربتين إلى الحمرة فيبدو أشبه بشرارات ذهبية، وزادت حدة مقلتيه المائلتين إلى الزرقة، ورفع حاجبيه الدقيقين وبدت أمارات الحزن على وجهه النحيل.

---

(1) - لفظة «بوجومولوف» في اللغة الروسية تعني: عبد الله.



«تركزت حياتي كلها في شيء واحد، فذاكرتي لذلك قوية. إني لأرى الماضي كما لو كان مكتوباً في لوح». وأدار رأسه إلى ركن الغرفة، وهناك فوق منضدة مستديرة، وفي إناء برونزي، كانت تستقر باقة من زهور جافة كأنها ملطخة بالوحل... كانت قبيحة الشكل ولم أدرك أنها زهور إلا بعد تدقيق النظر. كان الرجل ينظر إليها وهو يتابع حديثه:

ـ وغير بوجومولوف الذي لقب نفسه إذ زعم أنه من أتباع نيتشه[1]، اعتاد أن يزورنا الطالب بافلوف، ابن مدير مكتب البريد. كان ألطف من بوجومولوف، صغير السن، نحيلاً، له ملامح وذقن عنزة. كان مظهره مضحكاً ينم عن طبيعة هازلة، وحتى يخفي هذا الشذوذ كان يضع على عينيه منظاراً ذهبياً. كان كثير الجلبة، وكل ما تلمسه يداه الطائشتان، آنية كان أم قطعة أثاث، يقعقع بشدة. وكان لا يتحدث إلا عن المسرح، ورغم طيشه البين فقد نشر في الجرائد المحلية مقالات في النقد المسرحي. كان يعرف جميع الممثلين الروسيين. وحينما اطلع على إعلان الفرقة الجديدة التي نزلت مسرح المدينة انتابه اضطراب مضحك:

صاح: ل. دوبرينينا! لم أسمع عنها من قبل. ل...؟ ليوبوف؟ لودميلا؟ ليديا؟ لأي اسم تظنون هذا الحرف يرمز؟.

لم ينجح في التعرف بلاريسا دوبرينينا قبل بداية موسم التمثيل، فقد سقط من مركبة جليد وهو في حالة سكر، وارتطم رأسه بأحد الأبواب فجُرح. لقد مات منذ زمن بعيد،' لكني لا زلت إلى اليوم أذكره بالاستياء. هناك على الأرض أمثال لهذا الشخص، إذا نظرنا إليهم في مجموعهم فقد لا يكونون هم أنفسهم سيئين إلى هذا الحدّ، لكن معاشرتهم تكشف عن كل

---

(1) - لفظة «نيتشه» في اللغة الروسية تعني شحاذاً.



ما هو سيّىء فيهم. والواقع أن في روسيا أناساً أمرهم عجيب، كأن همهم من الحياة أن يثيروا زوبعة في «فنجان». هؤلاء الناس غالباً ما يتجمعون في الأوساط المسرحية. أما أنا فابتعت تذكرتين، واحدة لكوليا والأخرى لي، لحضور حفلة العرض الأولى. كان مقعدانا في الصف الثاني. وأتى بافلوف أيضاً ورأسه كله أربطة...

وتنهد الرجل بعمق، كأنما يستعد لرفع حمل ثقيل، واحتسى قدراً من الخمر وأغمض عينيه من جديد، واستغرق وقتاً طويلاً ليعقد يديه على صدره. وكان يحرك أصابعه بطريقة غريبة.

ـ كانت تعرض مسرحية «هاملت». وظهرت «أوفيليا» على خشبة المسرح...

وفتح عينيه وتابع حديثه بلهجة قاسية:

ـ يجب أن أصرح لك بأني لا أحب المسرح. إن النفس البشرية تباع فيه ببخس الثمن. إنه المكان الذي فيه يعرض زائف العواطف عرضاً أخرق... المكان الذي نسخر فيه من قوم يبدون مضحكين لأنهم إنما يحيون حياة أكثر من حياة الآخرين سذاجة. أنا لم أكن إلى ذلك اليوم قد دخلت المسرح إلا عشر مرات، وكنت أغادره دائماً وأنا أشعر بأن قوماً قد أرادوا أن يخدعوني لكنهم لم ينجحوا.

لم أكن منتبهاً حين ظهرت لاريسا أنتونوفنا على المسرح وإنما رفعت بصري إذ سمعت صوتاً جديداً: كانت هي أوفيليا، قد وقفت ونظرتها تستقر عليّ، في دهشة وبسمة حائرة.

في بعض الأحيان يحدث عند الفجر أن خيطاً شفافاً من نور الشمس ينتشر في ظلام حجرتك من خلال ثغرة في ستار أو في مصراع النافذة،



ويكون انتشاره واضحاً لدرجة تكاد تشعرك بأن في استطاعتك أن تمسك هذا الشعاع الجميل... كان ما ترسله عينا لاريسا هو كهذا الشعاع تماماً. وكان صوتها عميقاً عذباً. صوت ينم عن الأنوثة المكتملة، مع أنها كانت تتكلم بتوجع ورهبة كما يليق بأوفيليا ذات الحب الضائع. وكان هاملت بوقاحته يقف أمامها متشحاً بالسواد كأنه منظف مداخن ـ وقد قام بهذا الدور الممثل الشهير أجاروف...

وابتسم الرجل للمرة الأولى، فكشف عن أسنان سليمة بيضاء.

ـ إني لأذكر قصيدة قاسية كتبت عن أجاروف هذا...

وتلاها نافثاً الكلمات من خلال أسنانه:

كما يصهر لهب النار
الشـمعة النقيـة
يلقى النظارة أنفسهم في الفولجا
مستائين من تمثيل أجاروف

تلاها، ثم اكفهر وجهه وتابع الحديث ببطء وهدوء:

ـ لا يمكنني أن أحكي كل ما مر بي في تلك الليلة، لكني لا أستطيع أن أقول ـ على ما قد يبدو في قولي من كفر ـ إني تحادثت لأول مرة مع سرّ الجمال، ذلك السرّ المقدس. وليست هذه كلماتي، فقد كان بافلوف يصيح بها خلال فترة الاستراحة. وكان من عادته التكلم بجرأة دون أن يلقي بالاً لمعنى كلامه. وفي المسرح، كان يأتي دائماً بما يأتيه السكران. أما في تلك الليلة فكان يجول بين الحاضرين ويمسكهم من أزرار ملابسهم ومن أكمامهم، باذلاً نشاطاً غير عادي، كما لو كان قد استؤجر للقيام بذلك. كان يصيح:



ـ يا له من سحر! يا لهذه الموهبة! يا له من جمال بارع!.

وبعد هذا الفصل الجنوني بكى، ثم جذبنا، كوليا وأنا، إلى غرفة لاريسا. وهناك أغدق عليها عبارات المديح، وقبّل يديها آتياً بحركات مسرحية يعتادها أمثاله. أما أنا، فقد بدت في عيني كما كانت على المسرح الابتسامة نفسها على وجهها، والوميض نفسه اللامع في عينيها ـ كانت عيناها مائلتين إلى الزرقة... هادئتين، تكمن البسمة في أعماقهما. وكانت يدها جافة وساخنة. وأثناء استماعها إلى بافلوف، تضاحكت في رقة، غير آخذة مديحه مأخذ الجد.

سألت: وأنت ما رأيك فيّ؟.

ظننت أنها تخاطبني، فتهيأت لرد مناسب حين بلغني صوت كوليا الرفيع:

ـ أوه! رأيي أنك رائعة!... رائعة!.

حينئذٍ أدركت أني قد غفلت عن أخي برهة، مع أننا كنا نقف جنباً إلى جنب وقد أربكني هذا كثيراً كما أعجزني إعجاب كوليا بلاريسا. فانتحيت بأخي بعيداً، على أننا لم نلبث أن التقينا بخطيبتي، وكانت ابنة «شبين» كوليا. كانت شابة مثقفة تلقت علومها في جامعة بطرسبرغ، كثيرة التردد على المسرح. كانت موردة الخدين، جميلة، مكتملة الأنوثة، مرحة، مولعة بالحلوى، ولم يعجبها تمثيل لاريسا.

ـ امرأة صارخة الجمال، لكن موهبة التمثيل تنقصها. إنها تنتقل على المسرح وكأنها تبحث عن حلية ضائعة، ولا تحسب حساب الجمهور...

كان في نقدها شيء من الصدق، فقد تذكرت أن لاريسا كانت تكثر من النظر إلى الأرض وتتخذ فيما يبدو الاتجاه الخاطئ دون مراعاة الجمهور.



وأخذ كوليا يناقش خطيبتي بينما نفسي تحدثني ـ وكنت قد سمعت الكثير عن عبث الممثلات ـ بأن كوليا سيفتن بالتأكيد بلاريسا، وهذا معناه نفقات زائدة لتقديم هدايا إليها...

ثم استرسل يقول بلهجة قاسية كأنما يلومني على خطأ:

ـ أما لماذا سمحت لهذه الفكرة أن تخطر ببالي، فلأني أبعدت بها فكرة أخرى ـ أجل! أرجو أن تتذكر أننا ـ كلينا ـ قد نشأنا محرومين من حنو المرأة. أضف إلى ذلك أنني عشت في حرمان جنسي، رغم بلوغي سن الرشد، وذلك خوفاً من الأمراض المعدية. وتعرفت على إحدى الفتيات لكنها لم تلبث أن ماتت بعد أن عضها كلب «مسعور» وكثيراً ما وجدت حول مصنعنا كلاباً «مسعورة». هذا فيما يتعلق بي، أما كوليا فكان في منتهى العفة. وكان عليّ أن أوجه حياته. أفهمت؟.

ثم أغمض عينيه. وهز رأسه قائلاً بصوت خفيض:

ـ لا، لم يكن الأمر كذلك، لم يكن...

وبعد صمت قصير، تابع الحديث بلهجة المقهور كأنما يتكلم مرغماً، وفي طريقنا إلى البيت، كان كوليا دائم الابتسام في صمت. وأمكنني أن أفهم أن سبب صمت كلينا واحد. وفي البيت، عندما جلسنا إلى مائدة الشاي، تحادثنا بصراحة ـ كعادتنا ـ فأخبرته دون مواراة أنني سأسعى لنيل الحظوة لدى لاريسا وأنني واثق من نجاح مسعاي. قلت له هذا عمداً، وبأشد الألفاظ خشونة. إلا أنني بطبيعة الحال، لم أتعلل بهذا الأمل أو أشغل نفسي به.

غضب كوليا غضباً شديداً كما توقعت. وأخذ يتحدث بحرارة عن جمال روح المرأة. كان يتحدث بأسلوب رصين، ويستشهد بين الحين



والآخر بأبيات من الشعر. سخرت طبعاً من أقواله مع أنني أعجبت بها وتمنيت أن لو كانت عندي فصاحته. ثم ذهب كوليا إلى فراشه متكدراً. ونمت أنا أيضاً، لكني نهضت عند انتصاف الليل وصليت طويلاً. اقتنعت حينئذ بأن الله موجود وأن رحمته بالإنسان واسعة. سألته أن يزيل افتتان كوليا بلاريسا، وأن يزيل اضطراب نفسي كما يزول الحلم. وكانت الليلة ـ فيما أذكر ـ مقمرة، والكلاب تنبح عالياً...

* * *

وبعد ذلك بيومين، ذهبنا إلى المسرح مرة ثانية. ومثلت لاريسا «غادة الكاميليا»... رواية مقبضة كما تعلم. كل شيء فيها قدر لإثارة الرثاء في النفس. وفي هذه الرواية أيضاً، بهرت لاريسا الأنظار بجمالها الفريد. على أنني لم أتجاوب مع لاريسا في المواقف التي قصد بها إثارة الشفقة، بل وحين كانت ترسل الكلام عادياً دارجاً تذكرت نقد خطيبتي. أجل، إن لاريسا لم تخلق للمسرح. وقد أشعرني هذا براحة كبيرة. لم يعجبني منها، وهي تمثل في تلك الرواية، إلا ذلك التأني في القول وفي الحركة... إنه دليل الرزانة الشخصية، وامرأة مثلها، لا يلائمها قط دور «غادة الكاميليا». همس إلي كوليا في حزن:

ـ هذا الدور لا يلائمها، إن تمثيلها ممل.

وفي فترة الاستراحة، ذهبنا إلى غرفتها وبافلوف معنا، لكنها كانت تغير ملابسها فلم تأذن لنا بالدخول. ومن وراء الباب دعتنا إلى حفلة تبرك بمسكنها الجديد الذي اتخذته هناك، على الجانب الآخر من الزقاق...

وأشار الرجل إلى النافذة، كان اليوم من أيام الخريف، وضوء مصباح الزقاق وقد حاصرته خيوط رفيعة شفافة من رذاذ متصل، يرتجف محركاً أشعته الصفراء كعنكبوت ضخم قذر.



وحضرنا حفلة التبرك بمسكنها الجديد. ولأول مرة في حياتي وجدتني وسط حشد من الناس لم أر مثله من قبل. ولم أكن أعرف منهم إلا ملاحظ البوليس مامتكولوف، وكان فارساً قديماً لكن ما كان أشبهه بحصان هرم. وكان كل شيء في الحفلة مخالفاً للمألوف: فالموائد رصت في خطوط منحرفة، الأمر الذي زحم المكان دون داع. ولم توضع الزهور في آنية، وإنما نثرت على أغطية الموائد، وغير ذلك كثير...

لكني لم أحدثك بعد عما دار بينهم أثناء الحفلة من المناقشات! فمنذ تلك الليلة وأنا أعجب دائماً لهذه العاصفة من الأفكار والأقوال تهب بين المتعلمين عند اجتماعهم. فكل منهم يحاول في إصرار، وبأسرع وأقوى ما يمكنه أن يعارض غيره. ولست أعرف شيئاً أكثر تفاهة وإزعاجاً من تلك المناقشات حول الله والموت والحب. ظللت سبعة عشر عاماً أعاني باستمرار من هذا النقاش البذيء دون أن أستطيع استساغته. إنه ليس من الحكمة في شيء. إن هي إلا عقول تتقيأ معارف لم تقوَ على هضمها. أما أكثر المدعوين جلبة فكان هو بافلوف. ففي وسط هذا الحشد، حرص على أن يظهر بمظهر السيد المهيمن أو ميكانيكي المصنع الخبير. وجرت مناقشة لا أنساها، فإن كوليا قد شارك فيها مشاركة ما كنت أتوقعها. أما لاريسا فكانت قبلة الأنظار، جالسة في مكان الصدارة، تحت صورة مقدسة، في رداء أحمر قاني اللون، وزهور على صدرها... كانت رائعة، ساحرة، تتوهج كلها. وكان يجلس إلى جوارها الممثل الهزلي براجين، وكان من ذلك الصنف الذي يتظاهر بالورع في حين أنه نذل. كان مظهره منفراً للغاية... وجه أصفر بادي العظام، أنف أفطس، عينان غائرتان... صورة طبق الأصل من رسول الموت كما يتخيله الرسامون. كان هذا الرجل هو أول من بدأ النقاش بأن أبدى أسفه لعدم وجود رواية عن المسيح، ثم قال: إني



كلي رغبة في تمثيل دور المسيح. فردت لاريسا في الحال: وأمثل أنا دور مريم المجدلية. وهنا تدخل مامتكولوف وأبدى أسفه لحرمان المسرح من الروايات الدينية، وحاول آخر الأمر أن يثبت أن من لا يؤمنون باللّه يمكن أن يعود إليهم إيمانهم عن طريق المسرحية. وعلى العموم، كانت الأفكار يُلقى بها جزافاً.

وفجأة بلغني صوت كوليا المنفعل الرفيع ـ وكان يجلس بعيداً عني:

ـ لا يؤمن باللّه غير شرير خبيث...

صعقني هذا القول فلم أتمكن من ضبط نفسي إلا بصعوبة، وشعرت برغبة شديدة في أن أصيح فيه: اخرس! وطبيعي أن تثير السخط هذه الكلمات العابثة الجريئة. وثارت ثائرة بعضهم. ووقفت لاريسا وسألته في دهشة:

ـ لمَ؟ ماذا تعني؟ تكلم!.

فقال:

ـ لا أستطيع التعبير، وإنما هذا ما أراه وأحسه...

وسخروا منه طبعاً، وأخذ براجين يقص عن اليهود قصصاً مضحكة. وفي رأيي أن الممثلين يشجعون اضطهاد اليهود، وذلك بما يروونه عنهم من نوادر، ناسين أن اليهودي ضروري في الحياة ضرورة الملح والفلفل. كذلك لاحظت أن الممثلين إذا شربوا، كان سكرهم كريهاً للغاية. وإنه لمن الطريف ـ ومن الكريه أيضاً ـ أن تلاحظ أناساً حرفتهم الخداع وقد رفعوا أقنعتهم، وأن تكتشف تفاهتهم وفراغ نفوسهم. فعندما شربوا من الخمر كفايتهم، وضعف ما يحسه الغريب نحو الغريب من انعدام الثقة، انتزعت من براجين كل شيء عن لاريسا.



أثار دهشتي أن أعلم أنها كانت ثرية، تملك قطعة أرض، وكان زوجها مربي أغنام في جنوب روسيا، وهجرته من أجل حبها للمسرح... وأنا اشتغلت بالتمثيل منذ عامين فحسب وأحبت عملها لكن الناس لم تحفل بها بعد. سرني كما ساءني أن أسمع هذا. أما براجين فاسترسل يقول ضاحكاً كشيطان:

ـ على كل حال، إذا كنت تريد امرأة فإنني ألفت نظرك إلى «ترشنيفا» ممثلة الفودفيل ـ إنها شابة عذبة، ويمكنك أن تأتي معها ما تشاء.

قلت: لا، لست أهتم بذلك، ولكن أخي...

فأجاب: لا يهم، أعتقد أنها لن تصد أخاها إن هو بذل العطاء...

وقعقعتْ بطول الزقاق مركبة تمخر عباب المطر. وضوء مصباحها ينعكس على زجاج النافذة المبتل باعثاً الدفء فيه. ثم تناهى إلينا، من جديد، وقع قطرات المطر رتيباً مقبضاً وموسيقى ليلة الخريف كئيبة موحشة بينما العنكبوت الأصفر في مصباح الزقاق قد أخذ ينسج من جديد نسجه الشفاف. وثبت الرجل نظره في النافذة، وتابع الحديث بهدوء وكلماته تخلف وراءها غباراً جافاً، يساعد الخريف على أن ينشر فوق الأرض الأسى والملل.

وهكذا تحققت من أن براجين ليس إلا نذلاً. فقطعت حديثي معه. غير أني لاحظت أنه دنا من ترشنيفا، تلك المرأة البدينة القصيرة، وغمز بعينيه في اتجاه كوليا فضربت هي أنف براجين بزهرة كانت في يدها. أما كوليا فكان منهمكاً في نقاش حار مع لاريسا صاح أثناءها فيه مامتكولوف:

ـ أنا لا أفهم أن يشتغل الشباب بالسياسة والدين ـ إلى آخر هذه المباحث! إن الشباب في باريس يدرس ببساطة ويحب ببساطة، وبالاختصار يسلك في أسلوب إنساني بسيط.



عبست لاريسا وعبثت بمروحتها، وعبر وجهها عن الاستياء.

أما بافلوف فقال بلهجة مرنم الكنيسة هازاً رأسه الشبيه برأس الماعز:

ـ نحن الروسيين قيثارة العالم الرنانة، تردد صدى كل آهة بشرية.

وأمسكت ترشنيفا بكوليا من ذراعه، وقادته إلى حجرة مجاورة، ولكن حين سألته ونحن في طريقنا إلى البيت عما إذا كانت تعجبه هذه المرأة المرحة، أجابني بلهجة حادة:

ـ إنها بلهاء متهتكة. لكنك تخطئ إذ تتحدث عن لاريسا بسوء. إنه إنسان وديع يشغل عقله بأمور جدية...

وفي البيت، حدثني عنها حديثاً رائعاً. لم أسمع أبداً مثل هذه العبارات من قبل. وملأني حزناً وحسداً أن أراني عاجزاً عن تمجيد المرأة تمجيد كوليا للاريسا. وأعترف أني خفت من مجرد التفكير فيما قد يحدث لو أن لاريسا سمعت أقوال كوليا في مدحها.

قلت لأخي: كيف هذا وأنت لم ترها سوى مرتين؟.

لكن قولي هذا، لم يكن له غير تأثير قطرة ماء على نار مشتعلة.

وباختصار ـ عشق كوليا لاريسا. وأمسى من رواد المسرح، فأخذت تتوثق الصلة بينه وبين بوجومولوف الذي أضحى يجول في بيتنا طوال اليوم، وخصلة شعره تهتز على جبهته، ممعناً في الجلبة كضفدعة... وكان يقترض النقود من كوليا الذي كنت أخصص له مائة روبل كل شهر. وطبعاً، رأيت هذا كله سيّىء العاقبة بالنسبة لكوليا.

ونهض الرجل ومشى إلى الباب ثم توقف، وشخص ببصره إلى القيثارة المعلقة عليه وقال:



ـ هذه قيثارة لاريسا، لكنها لم تُجِد العزف عليها...

وعاد فجلس إلى المنضدة بادي الإعياء، واحتسى كأساً من الخمر، ثم غاص في مقعده.

واعتزمت أن أحدثه في الأمر حديث الأخ إلى أخيه.

قلت له: ألا تذكر كيف أقسمنا بعد وفاة أبينا، أن لا يخفي أحدنا عن أخيه شيئاً؟.

وفوجئت به يرد وكأني غريب عنه أو عدوّ له:

ـ أجل، أذكر ذلك. ولقد قدرت وقتئذ أنك تريد أن تحل محل أبي فتخضعني لمشيئتك. فلتعلم أن شيئاً من هذا لن يكون. إنما لم أقوَ على مواجهتك بهذا القول في حينه. لكني أقول لك الآن: إنني أكره مصنعنا ذا الروائح الكريهة، وأخجل لرؤية عمالنا يعيشون في قذارة وتتسمم أبدانهم. إن الصحف ما كتبت عنا سوى الحقيقة المرة.

ظل يتكلم دون انقطاع ما يقرب من نصف ساعة. تكلم بكل حمية الشباب وجهله بالحياة. قال لي إنه حين نظم العمال إضراباً، باع ساعته الذهبية التي أهداها له والده عند انتهائه من الدراسة الثانوية ـ بستين روبلاً أعطاها لبوجومولوف الذي كان يتولى جمع المال للعمال المضربين. كان هذا القول أشبه بخنجر يسدد إلي، ولو أن مجرد تأييد صاحب العمل لإضراب عماله مما يبعث على الضحك. كان هذا عملاً صبيانياً، لكني قلت له رغم ذلك:

ـ كوليا! أتؤمن بحبي لك؟.

فأجاب: لست أريد حباً، أريد حرية...

ـ اسمع يا كوليا: أنا أعلم طبعاً أنك تحب لاريسا، وأن كل شيء يتسبب عن ذلك...



ـ هذا لا يخص أحداً إلاي...

وحينئذٍ، تجاسرت على الكذب حتى أستأصل من قلبه هذا الحب النزق. قلت له:

ـ فات الأوان يا عزيزي! فلاريسا عشيقتي منذ بداية هذا العام. وطعنته كلماتي طعن الخنجر، فقد انتكص كمن خلع له ضرس. وامتقع وجهه ونظر إلي في رعب وشفتاه ترتعشان، وثنى حول إصبعه ملعقة فضية وهو يتمتم:

ـ لا، هذا كذب، هذا غير ممكن.

لكن خيالي أسعفني ففصلت الأمر تفصيلاً مقنعاً حتى صدقني، ونهض قاصداً غرفته في صمت وهو يتلفت وراءه إلى ناحيتي. أما أنا فقد استبد بي شعور بالخوف: أكنت على صواب فيما فعلت؟.

حدث هذا كله وموسم التمثيل يكاد ينتهي. وفي ذلك الحين كانت صلة المودة قد توثقت بين لاريسا وبيني. أعجبت بجمالها الفريد إعجاباً يشوبه الاحترام، فلم أبح لنفسي إتيان أي شيء معها. وكانت قد استثمرت جزءاً كبيراً من ثروتها بالاشتراك مع مدير فرقتها، فسهرت على حراسة أموالها. أما هي فكانت ترحب بنصائحي، وتقدر فيّ روح الجد والاستقامة. واعتزمت أن أحدثها في شأن كوليا. فلما لقيتها في منزلها عند الظهر، وكانت تتناول فطورها، قلت لها: إن طيش الشباب جعل أخي يغرم بها، وسألتها رأيها في هذا الجنون. فداعبتني أول الأمر:

ـ بأي صفة جئتني؟ أمتكلماً بالنيابة عن أخيك أم مزاحماً له؟.

لكنها لم تلبث أن قطبت جبينها ثم قالت بغيظ، وبريق الغضب يلمع في عينيها الجميلتين: إنها قد شبعت من حب الشيوخ والشبان والعسكريين والمدنيين ورجال البوليس والثوار.



واستطردت قائلة: ألست ترى أني أريد أن أهب نفسي للمسرح وألا أشغل قلبي بالحب ومشاكله؟.

وكانت تجلس وقد ثنت ساقيها تحتها، على أريكة... وترتدي ثوباً من «القطيفة» بلون التوت الأحمر ـ كانت تهوى القطيفة! ـ ومشابك فضية تحلي صدرها ـ وشعرها الغزير سابح على ظهرها. نظرت إلي نظرة مدمرة وقالت:

ـ لا تزعجني بهذه الأمور. وسأرحل إلى الخارج عما قريب، أما أثناء فصل الصيف فسوف أمثل في «ليبتسك»، في حين يكون أخوك قد شفي من مرضه. إنه لا يستفحل فيمن كان في مثل سنه.

واطمأن قلبي. فقبل تلك اللحظة، كنت ـ أنا نفسي ـ مغرماً بها دون أن أشعر بذلك شعوراً واضحاً. أما في تلك اللحظة فقد أدركت أني أحببتها من أول نظرة. أدركت هذا فجأة. وهكذا المصائب دائماً... تحدث فجأة.

وسكتَ، فانتهزتُ الفرصة وسألته:

ـ أكانت جميلة حقاًّ؟.

فقال بلهجة قاسية وهو يشير إلى صورتها على الحامل:

ـ ألا ترى؟.

ثم أضاف قائلاً كأنما يزن الكلمات:

ـ ربما لم يرها غيري جميلة إلى هذه الدرجة، لكن الواقع أن كلاًّ منا ينظر إلى محبوبته على أنها أجمل امرأة في العالم... ومضت عنا لاريسا في الأسبوع الأول من «الصوم الكبير»، تاركة كل أعمالها بين يدي. مضت محملة بالزهور وجمع من المعجبين يودعها. قال لي محام، كان في هذا الجمع، بلهجة تنم عن الحسد:



ـ إنك شيطان محظوظ!.

أما لماذا كنت محظوظاً، فلأنني استجمعت أطراف شجاعتي ولثمت يدها. ودونما داع بالمرة، قبّلت هي جبين كوليا حين أتى يودعها وقالت له:

ـ ليسعدك الله.

وهكذا أمسينا، كوليا وأنا، وحيدين. أما هو فكان يلازم حجرته بالطابق العلوي عاكفاً على كتبه، حزيناً، قد ازداد نحافة. وكان بوجومولوف في صحبته دائماً. وذات مساء، أثناء ما كنا نشرب الشاي، سألته:

ـ أيغضبك يا كوليا أن ابتسمت الدنيا لي؟

فقال: لا، لا يغضبني. ولكني شقي لأن في الأمر شيئاً لا أفهمه.

وأظن أني قلت لك إنه كان عنيداً، وفي أثناء هذه الشهور، بلغ أشده وازداد رزانة وولعاً بالكتب. ووجدت أن الحديث معه قد أصبح أعسر مما كان. وهكذا عشنا في نوع من التباعد حتى أتى فصل الصيف. وفي يوليو أتت لاريسا إلى «ليبستك» فلحق بها كوليا. وهكذا عشت ستة أيام واليأس يعقل لساني، كان صدغاي يرتعدان أثناء الليل من فرط خوفي. وكنت أعلم ما أخشاه. ولقد حدث فعلاً. ففي اليوم السادس بعد سفر كوليا تلقيت من لاريسا خطاباً كأن كلماته إبر النحل، وكأنما تفوح منه ريح الاحتقار، كتبت إلي تقول:

«أخبرني أخوك أنك كنت تتباهى بكوني عشيقتك. فهل هذا صحيح؟ أجب بلا إبطاء. أجب كرجل أعرفه صادقاً».

وكرجل صادق، لم أكن أستطيع الجواب. فمن أجلها هجرت خطيبتي، تلك الشابة التي كانت تحبني. ومن أجلها ضيعت حبي لأخي، **حتى شعرتُ بأن حياتي قد تحطمت بعد أن انهار عمادها.**



بعثت إليها بالبرق كلمة واحدة: «لا».

ورفع الرجل يده كشاهد يحلف اليمين، وقال بلهجة تنم عن اقتناع راسخ: «أؤكد لك أني ما كنت أستطيع رداً غير ذلك! أتفهمني؟... ما كنت أستطيع».

واغرورقت عيناه الزرقاوان بالدموع. كان ينظر إلي بعيني ضرير، وقد أخذ يدعك حنجرته، وصر على أسنانه مرتين كما يفعل الكلب، ثم تابع الحديث بصوت مبحوح وهو يسعل من آنٍ لآخر:

ـ ظننت... توقعت أن كوليا... ظننت أن لاريسا بدورها... قد يخلبها شبابه. ولكن. بعد ذلك بيومين أتاني كوليا في محل عملي، قادماً من المحطة رأساً. ودون أن يتخفف من معطفه، وقبعته مستقرة على مؤخرة رأسه، منتصب القامة كجندي، لكن كالسكران، ثم دنا مني وقال:

ـ أنت نذل يا بطرس!.

فصحت فيه: اسمع! ألا ترى أنني أحبها، أنا أيضاً؟ ألا تعلم أني ما قدرت عودتك، وأني توقعت ـ غير آبه أو آسف ـ أنك ستنتحر؟ ومع ذلك فأنا لا زلت أحبك. صدقني... ولكن ماذا أعمل إذا كان سحرها لا يقاوم؟.

خلع قبعته وجلس ونظر إليّ في ذهول. كان واضحاً أنه قد ذعر مما قلت، وأخذت عيناه تطرفان والانزعاج بادٍ عليه. مضيت أقول:

ـ إنك وسيم وأكثر مني ذكاءً، فالحب شيء سهل بالنسبة إليك. إنك تستطيع إغراء النساء ـ ولم توجد بعد المرأة التي لا يمكنك غزو قلبها. إنك تحب بخيالك، أما أنا فأحب بجسدي... بكياني...

وهنا هبَّ إلى باب الغرفة يغلقه بالمفتاح، ثم عاد إليّ متجهم الوجه، حتى ظننت أنه سيضربني، لكنه أمسك بكتفي وهزني منه:

ـ إذن، فهذه هي المسألة؟ فهمت... ولكن، ما العمل؟.



أسندت رأسي إلى ذراعه. وقلت:

ـ لست أدري...

لكن الفرح كان قد رن في قلبي. شعرت أن كوليا أقوى مني وأفضل، وكنت دائماً أعلم هذا لكنه اتضح لي في تلك اللحظة الوضوح كله، وتعشمت أن يعود الصفاء بيننا مرة أخرى.

أعدت قولي: لست أدري. إنك أذكى مني.

فسألني: لِمَ كذبت علي وألصقت بها تلك التهمة؟.

ولكن ذلك شيء لم أستطع تعليله بعد أن عجزت، أنا نفسي، عن فهمه. وأخذ يتمشى في الغرفة قائلاً: إنه يجب عليه أن يبتعد عن البلدة فترة ما، وأن يلتحق بجامعة أخرى: لكني توسلت إليه:

ـ لا، لا تفعل هذا! لا تدعني أشعر بالخجل، بل إني ـ بدونك ـ سوف أقع في مأزق، إنها تجهل كل شيء عن العمل، وأنا لا أقوى على رفض أي طلب لها.

فابتسم من طرف فمه وقال:

ولكن، ماذا أفعل الآن وقد جعلت مني مثاراً للسخرية؟.

سألته الصفح، وقررنا أن نقول للاريسا: إنني كنت أمزح وإن أخي أساء فهمي فتملكته غيرة الشباب.

فقال كوليا: حسناً جداً. ثم عنفني بطريقة أخوية:

ـ ما كان لي أن أصدقك أيها الآسيوي الماكر! ولو أن مكرك يسير، أجل... يسير...

ورفع يده مرة ثانية كأنما ليحلف اليمين، وقال بلهجة تنم عن الاقتناع:



ـ شاباً ممتازاً، كذلك كان أخي، في منتهى الكمال ونبل القلب. هذا ما أعرفه...

وكان المطر ينسج خلف النافذة نسجه، وشبح أسود ضخم قد وقف عند مصباح الزقاق ورفق ساقاً غليظة ثم خلق حذاءً من المطاط وضرب به عمود المصباح. وخلف نسيج المطر الشفاف كان يتراقص العنكبوت المتقد.

واحتسى الرجل مزيداً من الخمر، وكانت لا تؤثر فيه ـ ثم تابع الحديث بصوت محطم، وقد علا بكتفيه وعقد ذراعيه فوق صدره:

وعشنا بعد هذا، كما لو كنا قد تعارفنا لتونا، كثيراً ما كنا نناقش أثناء الليل مختلف مشاكل الحياة، وكوليا يدهشني دائماً بغزارة أفكاره الغريبة وكآبتها. وكان بريق عينيه قد ازداد بتأثير الهالتين السوداوين تحتهما ونحول وجهه الذي اكتسب مظهراً جاداً.

وكثيراً ما كان يتحدث عن الحياة فيشبهها بهرم أساسه ضخم لكنه فاسد ومزعزع، فهو لذلك عرضة للانهيار في أية لحظة بتأثير الثقل. وأثناء حديثه كان لا يني عن شدِّ شاربه الصغير وقد بدا عليه شرود الذهن ويبتسم بين حين وآخر. كذلك كان يقول: إن الفكر ـ كالحياة، لا يمكن أن يتخذ غير شكل هرمي، وإنما تتركب قاعدة الهرم هنا من مقومات كل صراع مرير، وما قمة الهرم سوى حل طائش. لقد أعجبت بهذه الأفكار وآمنت بصحتها، ولكني كنت أكره أن أرى كوليا ـ يسلم دون مناقشة ـ بصحة آراء بوجومولوف. وذات يوم، تغدى معنا «مورتون» العالم الكيماوي الذي كان يدير مصنعنا، وكان فرنسياً خارق الذكاء. وكان بوجومولوف يتحدث حديثه الفارغ عن الحرية، فسخر منه مورتون مؤكداً أن جوهر الحياة إنما هو العقل، فقاطعه بوجومولوف بوقاحة لا حدَّ لها قائلاً:



ـ إن للنمل وكلاب الماء نفس قدرتك العقلية، لكن تفكيرها مع ذلك ليس حراً، إن هو إلا قدرة على التكيف شبيهة بقدرة القرد.

وهكذا كان الفتى «ابن القسيس» يقذف دائماً بمثل هذه الأفكار السخيفة، وكان يغيظني منه فظاظته ووجهه الطويل الملتحي وشعره الأشعث القذر. كان الجميل فيه صوته فحسب، لكن كوليا كان يرى أن أقواله زاخرة بالحكمة.

ولم أعد أحدث كوليا عن لاريسا. غير مرة قال لي عنها، وأنا أناقش بشأنها بافلوف:

ـ إن ألمعيتها تكمن في جمالها، فإن موهبة التمثيل تنقصها، وأعتقد أنها أخطأت طريقها في الحياة. وأنها الآن لمقرورة يخيم على روحها الملل، فهي تنشد ناراً تدفئها، أعرف مدرساً له ابنة صغيرة مشلولة، لعبها أن تستدفئ أمام لوحة تمثل ناراً مشتعلة. كذا تستدفئ لاريسا أمام نار وهمية.

فأخذ بافلوف يصيح ويصخب محتجاً، على حين سرتني أقوال كوليا التي تنم عن الذكاء. صدقته... أما عن نفسي، فقد كنت عاجزاً عن القضاء برأي في قدرة لاريسا التمثيلية، فتمثيلها لم يكن يهمني في شيء. كانت تظهر على المسرح فما ترى عيناي سوى مفاتنها. كنت أصغي إلى صوتها البليد النابض بالحياة وأتملى جسدها البديع يتحرك وكأنه يسبح في الهواء. كانت تمشي في خفة لكن في جلال كما لو كانت تمن على الكون وعلى الناس ومعالم ساقيها الرشيقين... والثديان الصغيران المتباعدان...

وهز رأسه في حسرة، مغمض العينين.

ـ أنا كنت أتحدث عن...؟ آه، أجل. لقد سرني قول كوليا أنها قد أخطأت طريقها في الحياة. فقد ظننت أن هذا الطريق الخطأ قد يدفع



بها إلي. فلما عادت من السفر، زرتها مطمئن القلب، لكني وجدتها ثائرة
ـ فشلت في موسم الصيف وخسرت حوالي ثلاثين ألف روبل، فاكتشفت بسرعة سبيلاً إلى تهدئتها بأن زعمتُ أني قد استثمرت مالها في صفقة دهون مربحة، وبذا تمكنتُ من أن أقدم لها سبعاً وعشرين ألف روبل وكسوراً. ولم أشأ أن أجعله رقماً صحيحاً حتى يسهل تصديق الأمر. ابتهجت
ـ حتى المال يسر في بعض الأحيان قلب الإنسان.

ـ سألتني: أحقاً ما تقول؟ أوه! يا لك من صديق حميم حقاً. وأخوك المعتوه كيف حاله الآن؟.

واستطعت أن أقنعها بأن كوليا قد أخطأ فلم يفهم أني كنت أمزح إلا أنها سألتني وقد قطبت جبينها وأمسكت أذني، تتفرس في وجهي في شك:

ـ مزاح؟ أي مزاح هذا؟.

ـ في يوم من الأيام قلت له: إذا قبلت أنت...

فغرزت أظافرها في لحم أذني. تستحثني على الكلام مغضبة:

ـ وبعد؟.

ـ قلت... أن تتزوجيني.

فقالت وهي تدفعني في صدري: كذاب! لم يكن الأمر كذلك. لا بدّ وأنك قلت شيئاً آخر. إنني أنذرك يا سيدي بأني لا أسمح لك بمثل هذا المزاح، أقرصتك بشدة؟.

قلت: لا أكاد أحس شيئاً...

ـ عجيب! مع أني قرصتك بكل قوتي.

وبعد لحظة تأمل، قال بصوت عذب:

ـ إنكما مزيفان، أنت وأخوك، ولكنكما من «دقة قديمة»، لا إنسان مثلكما. اسمع، لنكن أصدقاء، لكن لا مزاح بيننا، موافق؟ وإلا...



ـ ورفعت إصبعها تحذرني.

ـ كان لها ذوق عجيب فيما ترتدي من أثواب...

وتنهد الرجل وشخص ببصره إلى خيوط المطر تنساب خلف النافذة والريح قد أخذت تجمع بينها وتفرق، ثم إذا بها تتساقط على ألواح النافذة والمصباح حبات من زجاج. ثم تابع حديثه:

ـ فسواء أكان ثوبها ضيقاً طويل الياقة أو واسع الذيل، فإنها كانت تبدو عارية. أتتصور ذلك؟ عارية تماماً. إنه جسدها التياه! كنت أخشى النظر إليه... ويغضبني أن أفكر أن الآخرين قد يخشون ما أخشاه!.

ولما عدت إلى البيت، سألني كوليا عما أصاب أذني. فقلت له: إنها قد انحشرت بين طرفي المقص أثناء ما كنت أسوّي لحيتي. وبدأ موسم التمثيل. وهذه المدينة، كما تعلم، مدينة تجارية عتيقة، فالجمهور هنا لا يحب لغة العواطف، إنه يؤثر التمثيليات المدرسية الصغيرة وخاصة حين تستلزم الملابس التمثيلية، أما إذا تحرك على المسرح قوم في ملابس عادية يعجبون لأمرِ من يحب...ولمَ؟ وكيف يكون الحب؟... ويتحدثون في هذا كله بلغة دارجة ـ فأين التسلية هنا وأين علاج الملل؟ وكانت لاريسا تميل بصفة خاصة، إلى مسرحيات المحدثين من أمثال «إبسن» و«هوثمان». فلم يكن يتقاطر الناس على المسرح إلا حين كانت زميلتها زوزينا. وكانت امرأة سيئة الخلق، تمثل «الساحرة» أو «ماري ستيوار»، لكن الجمهور لم يحب لاريسا، ومع أن بافلوف كان يثني عليها في الصحف إلا أن جمهورها لم يكن غير شباب المدينة وسيداتها. ولكن هؤلاء إنما كنّ يأتين لمشاهدة ملابسها. كانت المقاعد الأمامية خاوية دائماً. لم يمتلئ مسرحها مرة، الأمر الذي كان يغضبها جداً.



كثيراً ما كانت تقول:

ـ أينما وجدت أنك لا تستطيع الحياة بدون الحب، وأينما جهل الناس أمر الحب، فإن المسرح يمكن أن يعلمهم ما هو الحب ـ حب الإنسانية، حب المرأة، حب الحياة.

كانت تعيش في بذخ، ففي أوقات فراغها كانت تقيم في بيتها الحفلات، وهنا يكون العشاء وشرب الخمر ثم النزهة بالزحافات، والكل من حولها قد جن جنونه. أما بافلوف فكان يصيح، بين سعاله واخضرار وجهه وشهيقه.




Arab_Books

لنكن كالشمس![1]

كانت بيمر، ممثلة الفودفيل، تغني مقطوعات إباحية. أما براجين فيروي طبعاً حكايات عن اليهود. وأما مامتكولوف فيصهل كالحصان، وهو يصيح: الله! الموت! الحب! ضجة يقشعر لفرطها البدن. أما لاريسا فكانت تجلس كالملكة وعلى شفتيها ابتسامة غامضة. كثيراً ما أذكر ما كان يقوله كوليا عنها، أثناء تلك الحفلات: «إنها كمن أشعل ناراً ثم جلس يرقب الناس يحترقون بين ألسنتها، ولكنه يظل وحيداً بعد ذلك بارد الأوصال».

في مثل هذه الليالي، كان حبي للاريسا يبلغ مداه. وكل ما كنت أتمناه أن ألقي بالمدعوين جميعاً إلى مرجل الصابون. وكنا، كوليا وأنا، يراقب الواحد منا الآخر، كلصين اعتزما سرقة كنز واحد. لكنهما لن يقتسماه. وأعتقد أن لاريسا كانت تفهمنا. فذات يوم، بعد أن شربت الخمر بدافع من الحزن، سألتنا بلهجة تحدٍّ:

ـ قولا لي أيها الأخوان العزيزان. ألستما خائفين أن يأتي يوم ألتهمكما فيه؟.

هذا ما قالته بالضبط. لم أجد جواباً، أما كوليا فأجاب بنكتة بارعة:

ـ خير للمرء أن تلتهمه لبؤة من أن تخدشه قطة.

---

(1) - من قصيدة للشاعر الرمزي المعاصر.



وفي بعض الأحيان كنا نتساءل، كوليا وأنا، وقد سئمنا الحياة لآخر درجات السأم:

ـ هيه، يا أخي، وآخرتها؟.

ثم نأخذ في الضحك. كنا نضحك بالرغم من ذلك، وذات يوم قال لي كوليا:

ـ ما أشبهها بشعاع من الشمس تحاول أن تمسكه! لكن ضحكنا لم يطل، فقد هبط المدينة رجل إنجليزي يشتغل بجمع فضلات الكتان، اسمه وليم بروكتور. كان يتكلم قليلاً من الروسية، وقدمه مامتكولوف إلى لاريسا وكانت تتكلم الإنجليزية والفرنسية. وهكذا أخذ بروكتور هذا مكانه إلى جوار لاريسا كأنه نصب تذكاري، وعيناه الواسعتان الرماديتان لا تستقر لهما نظرة. كان طويل القامة، متين البنية، ملوح البشرة، على جبهته ندبة، ينم مظهره عن الصلابة. وكان يدخن بلا انقطاع، ويجرع الفودكا كما يجرع العجل اللبن دون أن تؤثر فيه، ولا يني عن الغمز بعينيه. كان يبدو عليه أن الناس يدهشونه لكنه لا يصدقهم ولا يريد أن يظهر دهشته. غير مرة رنمت له سونيا سافنزيفا، الممثلة الموهوبة، أغنية ينام عليها الأطفال. فصدرت منه أصوات كأنها طقطقات مسدس وقال لها: شكراً، هذا أبدع ما سمعت.

ولثم يدها وانطلق ـ انطلاقاً غريباً مضحكاً ـ دون أن يحيّي الحاضرين. وبعد هذه الحادثة، بدا واضحاً أن لاريسا تنعم بمزيد من الراحة النفسية ودبَّ في حركاتها فتور غريب... ويمكنك أن تفهم معنى هذا كله.

أما كوليا فقد ازداد نحافة واكتئاباً. قال:

ـ صيدنا يحوم حول صائد ماهر لن يخطئ الرمية.

وانقطع عن الدراسة وصار ينهض من نومه عند الظهر، ويقضي باقي



اليوم يتجول بملابس النوم في أرجاء البيت ويصفر لحناً يهيج الأعصاب. أما عن موقفي ـ فقد سمعت أن ذلك الإنجليزي مقامر، فقدمته في نادي المدينة إلى محام أشيع أنه يغش لاعبيه، آملاً من وراء ذلك أن يصفي جيوبه ذلك الإنجليزي. ولقد فعل ولكن كان عليّ أن أتحمل بعض خسائره. فقد استدعتني لاريسا وقالت لي:

ـ أقرضني خمسين ألف روبل.

ـ إنني في خدمتك.

كنت أكثر منها علماً بحسن مركزها المالي. ففهمت طبعاً لمَ تطلب هذا المبلغ «ما كنت أستطيع رفض طلبها» بل قالت لي: إن بروكتور سيقضي الليل معها، وأمرتني أن أعد الفراش. إذن لأعددته. ربما كنت أنتحر بعد ذلك وربما لا. فإني لا زلت حياً أرزق!. ولكن كان هناك ما هو أسوأ من بروكتر هذا. فإنه رحل بعد فترة قصيرة ولاريسا من بعده حزينة في غضب، تنشد السلوان. كذلك بدأ كوليا يفرط في الشراب.

يا إلهي، كم هو مؤلم تذكر كل هذا! اقترحت عليه أن يسافر إلى الخارج، أن يذهب إلى بطرسبرغ أو سيبيريا. فقال:

ـ لنرحل سوياً.

ـ ألا ترى يا عزيزي أني لا أملك الفرصة؟.

فأجابني عابساً:

ـ **لفظة «الجو» مؤنثة. وهذا هو السبب في تقلبه.** وأنت ماكر صبور... ربما انتظرت انقلاب الجو ـ وربما مهدت له السبيل.

أخذ يحدثني بخبث وسخرية ونظرته، إذ تلتقي أنظارنا، أجدها



عدائية. وكان جالساً يهز قدميه، ويصفر، ولا يني عن إلقاء نظراته تلك حتى أحسست أن الغرفة قد ضاقت بكلينا.

وأمضت لاريسا فترة الصوم الكبير في المدينة. وفي عيد الفصح بدأ موسم التمثيل. وبعد ذلك بأسبوعين انتحر كوليا ليلاً في ميدان المسرح، هناك حول الناصية. لست أدري ماذا حدث بينه وبين لاريسا، من المؤكد أن شيئاً حدث بينهما. كان على موعد معها في اليوم السابق لانتحاره، وذهبا سوياً لزيارة بافلوف. أجل: أطلق كوليا رصاصة في قلبه. وأتوا به إلى البيت، فأخذت أعوي كوحش جريح، واسودت الدنيا في عيني. أحسست كأن عاصفة طوحت بي إلى بئر أو إلى هاوية سحيقة حيث أخذت أدور حول نفسي هاوياً إلى أسفل.

وأذكر أنه كان يرتسم على وجه كوليا تكشيرة ساخرة، وتحت ثديه الأيسر ثغرة كالعنكبوت. ولا دم أبداً. إن هو إلا عنكبوت أسود صغير. حينئذ، اجتاحتني موجة من الكراهية للاريسا لدرجة أنه لو رأيتها أمامي في تلك اللحظة، لست أدري ماذا كان ينالها مني، لكنها كانت لا شك سوف تدفع الثمن. وأتت مع براجين عند المساء، وكانت الدنيا قد أظلمت والمطر يخشخش تماماً كما يفعل الآن. ولقيتها في حجرة الاستقبال فأخذت أصرخ فيها ضارباً الأرض بقدمي، ولكنها نحتني جانباً في صمت ومهابة، وسألتني بعنف:

ـ أين؟.

كان معطفها المبلل بالمطر ـ وكان من ثياب التمثيل ـ قد انزلق من على كتفها ويجر على الأرض. وكان وجهها من شدة شحوبه يكاد يكون أزرق والعينان فيه مشتعلتان. كانت أشبه بجنية من الجنيات. خرّت على



ركبتيها أمام الأريكة التي كان يرقد عليها كوليا، ومسحت على وجهه بإحدى يديها وبالأخرى رسمت علامة الصليب. ثم قالت بصوت مرتفع:

ـ عفواً يا عزيزي، عفواً!... أما قلت لك؟... يا رب، عفوك.

وكنتُ راكعاً أنا أيضاً إلى جوارها، فتمتمتُ:

ـ هذا كله بسببك، الذنب ذنبكِ.

وهدأت ثائرتي بعد أن قلت هذا، ولم يتملكني غير خوف شديد ومن نوع الإحساس بالفراغ، بحيث لم تفلت مني أية بادرة، ورحت أراقب كل تغير يطرأ على وجهها وكل حركة من أصابعها.

صاحب فيّ: اسكت! اسكت!.

ولاطفتْ وجهي كما لو كنتُ، أنا أيضاً، جثة. كانت يدها ساخنة جداً وترتعش. أما أنا فكنت أنتفض من قمة رأسي إلى أخمصي، ثم نهضتْ ودنتْ من النافذة. وقالت:

ـ هات لي خمراً.

فدعوتها إلى جناحي الخاص. وأتى معنا ذلك الهيكل العظمي، براجين اللعين، يمسح منظاريه كأن لم يحدث شيء، وأمرت بقدر من الخمر والشاي. ومنذ تلك الليلة يا سيدي بدأت حياة لا يدركها أنشط خيال. شربت قنينة من الـ«بورت» ثم قدحاً من الشاي الممزوج بالكونياك ـ ولم تلبث أن ثارت ثائرتها واشتد وميض عينيها وحشية ـ عيناها اللتان كانتا تعبران دائماً عن سخرية بالناس وترفّع عليهم، كما يبدو ذلك من صورتها هذه. تكلمت بفظاظة لا تطاق، ما ظننت قط أن امرأة مثلها، مثقفة جميلة، يمكن أن تصدر عنها مثل هذه الأقوال الفاضحة المدمرة.



ـ وهكذا انتحر هذا الفتى الذكي اللطيف، لأنني لم أخضع لرغباته ولكن من ظنني حتى أفعل ذلك؟ أعليّ أن أسلم نفسي لكل من يشتهيني؟ لبراجين ـ الذي أمضى ثلاث سنوات ينتظر تلك الفرصة؟ لك أنت أيضاً تتمنى طبعاً لو تراني في مخدعك؟ إن الله قد وهبني الجمال، فهل معنى ذلك أن أمنحه لكل من يشتهيه حتى ولو كنت لا أميل إليه؟.

ترنحتُ من الخزي والخوف عند سماع كلماتها. وشعرت بالخوف لأنني أدركت أنها صادقة فيما تقول. كما أن هذه الأقوال قد كشفت لي عن الجانب المؤلم في حياتها. أما براجين، فكان قد شارك في الشراب، فقال وقد أربد وجهه البادي العظام:

ـ إني لا أحب الروايات الدرامية يا عزيزتي لاريسا، ولا أقبلها. الأمر في منتهى البساطة. انتحر طالب غني. الله يرحمه! وهذا حادث يجلب لك الشهرة.

وأمسكت به من ياقته كي أضربه، لكن لاريسا كانت قد جذبت يدي وكأنها يد طفل لا حول له، وقالت:

ـ دعه. إنه نذل. ذكي جداً لكنه نذل. وربما كان هذا هو السبب في أنه ذكي. أما الإنسان الصالح فيندر أن تجده ذكياً.

واستصوب براجين الشرير كلامها، فقال:

ـ هذا صحيح. إنني أتظاهر بالطيبة على المسرح فقط، ويبدو هذا لي أمراً مضحكاً. ولذا يضحك الجمهور أيضاً. فالجمهور يلذ له أن يرى الخير يثير الرثاء والسخرية.

ومضت لاريسا في حديثها اليائس:

ـ إن لي هدفاً واحداً. أريد أن أطهر المسرح من الخسة، وأكتسح



كل النفايات القديمة، وأظهر روح المرأة الحديثة التي تفوقت على نفسها والتي تنشد الآن ما يلائمها. فالحب لا يكفيها، لا. ولا الأمومة ـ إنها تريد شيئاً آخر، أما ما هو هذا الشيء الآخر، فلا أدري. لكنها يجب أن تناله.

كم من مرة سمعت هذه الأقوال نفسها!.

وتابعت حديثها: لكنني ألقى مصاعب جمة. فأنا لم أحتل مكاني بعد على خشبة المسرح. والناس يعترضون سبيلي فيعوقون حياتي وعملي ويشتهونني، **ثم يرقدون آخر الأمر هكذا، جثثاً هامدة،** كان أخوك كوليا شاباً ذكياً لطيفاً، ولكني لست في حاجة إلى أحد على الإطلاق.

كانت، أثناء الحديث، تشرب الخمر بلا انقطاع كأنما لتطفئ ناراً في جوفها. كذلك شربنا. أنا وبراجين. شربت حتى الثمالة، ورثيت كثيراً للاريسا، ولحالي، ولكوليا. رثيت للاريسا بوجه خاص. ركعت أمامها وقلت لها: إنني سأخدمها كالكلب طوال حياتي. فمرت بيدها على شعري. وأمنت على قولي:

ـ أجل يا بطرس، إني أعلم أن لك من الكلب أمانته وإخلاصه. رحمتك يا رب...

وخشخش شيء في زاوية الغرفة، بالقرب من المِدفأة. فتنهد الرجل ومال على إحدى الشمعتين ورفعها، وأضاء الزاوية:

ـ هذا فأر. إنه يبدأ نشاطه دائماً في مثل هذه الساعة من الليل. وشخص ببصره إلى النافذة مدة طويلة، وكان المطر لا يزال يلقي خيوطه المائلة حول مصباح الزقاق بينما تطفو عبر فقاعة الضوء الشاحبة أنصاف دوائر سوداء ـ إنها مظلات قوم يعودون من المسرح. صاح أحدهم تحت النافذة:

ـ لا: لا أستطيع.



منذ تلك الليلة، بدأت أحب لاريسا حباً صادقاً، بلا أمل. وأقامت خلال فصل الصيف في فيلا على شاطئ أوكا بالقرب من ريازان، وكنت أتردد عليها كثيراً وأراها تمضي في تلك الحياة الصاخبة المضطربة ويحاول أن يوقعها في شباكهم رجال لا أعرفهم. سألتها:

ـ أهم يضايقونك؟.

فقالت: أجل. يضايقني الجميع. إن الشخص الوحيد الذي يعينني على الحياة هو أنت يا بطرس.

كلمات كهذه كانت كنزاً كبيراً بالنسبة إلي. وكانت تسرف فيها فضاعف هذا من تعلقي بها. والواقع أنها كانت كريمة، وهنا تناقُض: فهي لم تكن من الطيبة في شيء، ومع ذلك كانت سخية في لطفها ورقتها، كذلك كانت تبعثر النقود وكأنها أوراق فكان لزاماً عليّ أن أدقّق الملاحظة حتى لا يسلبها أولئك الشحاذون المهرة الذين يتخذون من الحب سبيلاً إلى ابتزاز الأموال. كانت تعطي الناس النقود بابتسامة لها معناها لدرجة أنه لو كنت شحاذاً لما أخذت منها كوبيكاً واحداً. لقد كانت تحتقر الناس، وسيّىء الحظ منهم خاصة. كانت تستمع إلى شكاة أحدهم فإذا بها تبتسم فجأة وتغمز بعينيها ثم تقول:

ـ أوه يا عزيزي، ما أشد بؤسنا!.

كنت أسمع هذه الكلمات فكأنما تنهار فوق رأسي كتل من الجليد فكتمت شقائي خشية احتقارها، ووجدت في الاهتمام بها والقلق عليها كل بهجة حياتي. كانت تلقاني بالحفاوة دائماً، وحين تقدمني إلى الغير تقول بتوقير:

ـ إنه صديقي الأوحد الخالي من الأغراض. كونوا لطفاء معه.



وظن الناس طبعاً أنها خليلتي. أجل. كانت تقول: كونوا لطفاء معه. ورثت لحالي فعشقتني الممثلة الكوميدية سونيا صافزيفا. امرأة جميلة موهوبة ذات خفة روح لا تنضب. كانت تقيم مع لاريسا.

وذات يوم، كنت أجالسها في الحديقة قرب النهر والغروب يأخذني بروعته. كان مساءً حاراً عطراً، وشجر الزيزفون قد أزهر، أشعلت سونيا سيجارة ثم سألتني:

ـ قل لي يا بطرس، يا فارسي المسكين: لماذا أنت حزين هكذا؟.

قلتُ بلهجة حاسمة: لا، لا شيء.

لم أخبرها بالحقيقة خشية أن ينزلق لساني فأندب حظي مع لاريسا فعادت تقول:

ـ والآن، لا تكن كذاباً يا عزيزي. لقد راقبتك طوال سنوات ثلاث. دعني أخاطبك بلسان هذه الأغنية:

جهدك يا بني ضائع في الهواء.

فعبثاً تضني قدميك.

لن تجني من جهدك شيئاً.

سوى الهلاك.

ثم مضت تقول: أنا هي من تحبك. إنني أبدأ بالاعتراف مع أن هذا يعيب المرأة. أحبك. أحبك حباً شديداً. أنت تعبد الحب وأنا أرثي لك رثاء المرأة والأم.

نهضت واقفاً، وقد اجتاحني اضطراب شديد: كدتُ أثبُ إلى النهر!. وكان هناك نهر، كما قلت لك، يتدفق عكراً كحياتي. واندفعت إلى عيني سونيا الدموع لكنها تضاحكت وهي تقول:



ـ طريقة جارحة صبيانية تلك التي أعلنت بها حبي. أجل طريقة صبيانية.

فقلت بمنتهى الغباء:

ـ أشكر لك... لكني...

فمدت يدها كأنما لتدفعني من صدري. وهمست قائلة:

ـ صه! اذهب. ولكن تذكر ـ عند الحاجة ـ أن هناك إنساناً يحبك بكل جوارحه، أصدق الحب. أما لاريسا فامرأة بلا قلب... **إن عقلها قد التهم روحها.**

كان هذا كله حسناً جداً ـ رغم ما فيه من حزن ـ لو أنها لم تقل هذه الكلمات الأخيرة عن روح لاريسا. آلمتني هذه الكلمات. قد لا أكون فهمت روحها، لكني أحببتها كما هي. ثم إذا بامرأة منافسة غيرانة تدمر هذه الروح الخبيثة. لقد استأذنت بجفاء، وظلت صافنزيفا على الدكة تدخن بينما توغلت بين الأحراش. وتملكني غمّ شديد حتى أنني، لأول مرة في حياتي، أخذت أبكي ـ أتتصور ذلك؟ وانتفضت من البكاء حين جال بخاطري أني ربما أكون قد فقدت السعادة الوحيدة المتاحة في الحياة. كذلك تألمت من أجل لاريسا. وصل بي الحال أن جلست على وكر نمل دون أن أشعر... أخذ النمل يقرصني وأمعن في ذلك لكني بقيت جالساً هناك غير واع شيئاً. وبعد ذلك كان عليّ أن أذهب لأغتسل وأنفض ملابسي كلها. وأمضيت سواد الليل أتنزه على شاطئ النهر، وقلبي يكتوي بنار حزن مدمر. وفي الصباح، استدعتني لاريسا بعد الفطور، وقالت لي بلهجة حادة:

ـ أدت سونيا أمامي المشهد الذي اخترته لها، وكان تمثيلها رديئاً جداً

ـ هذا الدور لا يلائمها. أما أنك قد رفضت عرضها، فهذه حماقة منك... إلا أن هذا شأنك وحدك. ولكنه شيء يفوق الحماقة إن شكوت مني إليها ـ وفي هذه الحالة يكون الشأن شأني. فهل شكوت؟



قلت: لم يحدث شيء من ذلك.

فابتسمت ونظرت إلي نظرتها تلك التي تستشف ما بالقلب. وقالت:

ـ أعتقد أنك تقول الحق. اسمع يا سيدي: لا تنتظر مني «أي شيء»... لن يكون بيننا أي شيء من هذا القبيل ـ فلاحظ هذا جيداً. على أنني من ناحية أخرى، قد سررت لرفضك عرض سونيا. سررت من أجلي ومن أجلها: فإنها سرعان ما كانت تسأم عشرتك، كما أني لا أحب أن لا تكون إلى جانبي. ألا ترى كم أنا قاسية؟.

وكانت ترتدي يوم ذاك ثوباً من «الدانتيل» أبيض اللون ومفاتن جسدها تتألق من تحته فتبهر النظر مخلفة في النفس الاشتهاء والألم. كما كان كل ما ترتديه أبيض: جوربها، ونعلاها، وكان شعرها بلون الكستناء يتوج رأسها وعيناها باسمتان في مزيج من التهكم والغيظ. كانت مستلقية على أريكة وقد سقط أحد نعليها فبدا كعب قدمها مستديراً كالتفاحة. وكان يغمر الغرفة ضوء الشمس وباقات الزهور، فبدت بينهما عظيمة في مظهرها عظمة لا توصف، **يا لها من قوة، تلك التي تكمن في جمال المرأة يا سيدي...** وحضرتني كلمات كوليا: «شعاع من الشمس تحاول أن تمسكه!».

وبعد لحظة صمت، قالت لي، وقد بدا عليها شرود الذهن:

ـ إنك لا تعلم يا بطرس مدى موهبة سونيا. إن نبوغها لا حدَّ له، ليس هناك من المسرحيات ما يلائمها. آه لو كان لي نصف مواهبها... ومع ذلك فإنها تريد الزواج من تاجر صابون. اسمع: لماذا لا تتخلص من هذا الصابون؟ ما حاجتك إليه؟.

قلتُ: حسناً. سأفعل ذلك.



والواقع أنه لم تكن بي حاجة إلى المصنع، فقد كنت أعلم أني سأظل أعزب مدى الحياة. وهكذا حين عدت إلى البيت، قلت لمورتون، مدير المصنع، أن يعمل على إيجاد الشاري. فذهل بادئ الأمر ثم غضب وقال: إنه لن يبيعه فسوف يشتريه هو نفسه. وهكذا تم الأمر. وبعت له المصنع بثمن معتدل ـ لأجل خاطره. كان يستحق ذلك. ثم سافرت إلى ريازن حيث كانت تمثل لاريسا، وأقمت في أحد الفنادق. وهكذا بدأتُ حياة جديدة. أمضيت اثني عشر عاماً في تلك الحياة المضطربة ! واعتدت ـ بعد صعوبة ـ على التشرد والبطالة، وعلى تلك الحياة البوهيمية والفنادق القذرة والغرف المؤثثة، وذلك التتابع المتصل لنزلاء غرباء جدد. كنت وسط هذا كله، كحبة يطحنها القدر ورمال في الطاحونة. وفي روسيا عدد لا يحصى من الناس يعيش بينما لا حق له في العيش مطلقاً: وأظنني قلت من قبل إنهم يتكاثرون حول المسارح خاصة. حول الخداع. فما المسرح إلا ضرب من الخداع.

أما تمثيل لاريسا في تلك المدينة، فكان عادياً لا تنميق فيه ولا تفخيم، بل وحين كانت تتفوه بعبارات تستدعي بطبيعتها لهجة تمثيلية، لم يكن الجمهور يتجاوب معها، بينما أثار ممثلون آخرون حماس الجمهور الشديد ودموعه. واقتنعتُ أنا أيضاً، بأن تمثيل لاريسا لم يكن ممتعاً، وإن كنت أنا نفسي، لا أحب ولا أقدّر فناً غير الموسيقى ـ كذلك كان من الصعب أن تفهم نوع الشخصية التي كانت تمثلها لاريسا، أخيّرة هي أم شريرة؟. غير أن الجمهور يحب الوضوح، إنه يرغب عن التفكير مؤثراً الكلام، وهذا شيء طبيعي: فكل منا يبتغي أن يبسط حياته، كل منا يرى الدجاجة أقرب إليه من السنونو. أما بساطة لاريسا فكانت من نوع غامض، ولذا لم تلقَ نجاحاً رغم إعجاب الناس بجمالها. وكانت تعلم ذلك طبعاً وتتألم منه.



وأمكنني أن ألمس أن احتقارها للناس أخذ يتزايد. وفي بعض الأحيان، وبعد أن تحتسي نصيبها من الشراب، كانت تحاول أن تقنع نفسها فتقول وهي تضرب المنضدة بقبضة يدها الصغيرة، والشرر يتطاير من عينيها:

لا يمكنني أن أصدقكم يا أجلاف. سأريكم كيف تفهمونني، سأرغمكم على ذلك، فالمسرح ليس ألعوبة.

ورثيت لها رثاءً رائعاً، وبفكري كنت أحاول تهدئتها:

- اهجري هذا كله، ولا تنثري دورك للخنازير.

وكنت أبتهل إلى الله أن ينتشلها من هذا الطريق. لكنها كانت تردد العبارة نفسها دائماً:

- سأرغمهم على حبي.

وبالمعنى البذيء الدنيء للكلمة. أحبت طبعاً في كل موسم وفي كل مدينة. وكان يسليني ويغيظني معاً أن أرقب انفعال التلاميذ والطلبة ومحترفي الحب، كذلك كان يصيبني الغثيان أن أرى كلاباً هرمة لاهثة الأنفاس، شفاهها غليظة وأسنانها صناعية... وهي تدور حول لاريسا وتعوي، وقد سال لعابها اشتهاءً. والحفلات! أضحت تقيم منها المزيد، وزاد إفراطها في الشراب لكنه لم يكن يؤثر فيها كثيراً. كانت قوية الأعصاب، وكان أقصى تأثير الخمر فيها أن يحمر وجهها وتتسع الحدقتان في عينيها المغمضتين إلى النصف في تهكم، والنظرة منهما قاطعة كالسيف. لكنها كانت تتفوه بألفاظ جارحة، بل وكان لأقوالها أحياناً وقع الصفعة على الوجه. وقد حدث في خرسن أن تعلق بها في إلحاح ووقاحة أحد المحامين. كان يتصنع الظرف، أنيقاً، له من الثعلب رأسه ومن الميت يداه الباردتان. وكان يهوى التحدث بالفرنسية ويردد المرة بعد المرة قصيدة يعينها:



أنا السكين والجرح،

أنا الوجه المصنوع واليد الصافعة،

أنا الضحية الوديعة والطاغية الجبار...

وذات مرة، لثم يدها أثناء العشاء فسألته لاريسا بصوت قاتل وهي تمسح يدها بمنديل وتبدو عليها علامات الاشمئزاز:

ـ أنت مصاب بزكام؟

واخضر وجهه بشدة، وطرفت عيناه كأنما واجه نوراً قوياً. وكانت تقول ما هو أسوأ من ذلك، وأخشن... بل وأقذع الكلام لم تكن تتورع عن قوله، لكن كان له على شفتيها نكهة خاصة. وكانت تعامل معجبيها بتقلب ووقاحة، وتهوى إثارة أحدهم ضد الآخر. ففي منسك تعلق بها نائب الحاكم وأحد التجار، أما هي فتفننت في الإيقاع بينهما حتى أثارت في المدينة فضيحة خاضت فيها الصحف. وهناك أيضاً عشقت عازف الكمان بالأوركسترا، وكان فتًى يهودياً، لكنها لم تلبث أن طلبت إلى إعطائه منحة دراسية وإرساله إلى فيينا للدراسة. آه! أجل، لقد نسيته ـ الممثل الهزلي براجين! لقد شنق نفسه على «نجفة» بعد أن بعث برسائل دنيئة إلى لاريسا وإلي. لقد كان نذلاً في حياته، ولم يجد في مماته غير الشنق لائقاً به. يا للعجب! إنه يريد تمثيل دور المسيح، وهذا شيء آخر لطالما لاحظته!، كلما كان الإنسان خسيساً كلما أصر على أن يلعب دور الرجل الشريف. ولكن لا ينجح في ذلك إلا البعض فقط... ألك في قدر آخر من الخمر؟.

وقام وانحنى بجوار المدفأة قائلاً:

ـ إنها خمر طيبة... «سان استيف»، كانت خمرتها المفضلة. اعتدت استيرادها في ذلك الحين من فرنسا رأساً.



وبحرص، فتح قنينتين: وضع إحداهما أمامي، ومن الأخرى صب ملء كأس وراح يشربه على مهل، وقد أغمض عينيه وأخذ يحرك تفاحة آدم. ثم مسح فمه بمنديله، وتابع الحديث بصوت طبيعي هادئ، عذب الأسلوب كأنما يتلو صلاة:

أحبت مراراً، لكن حبها كان دائماً فجائياً قصيراً كأنما كانت تفي بواجب عليها. ففي «تامبوف» تماسك بسببها مفتش السجن وضابط، وتبارزا، وجرح المفتش، لكنها رفضت أن ترى أي واحد منهما، وتوقفت عن التمثيل في منتصف الموسم وانطلقت مع أحد الملاّك إلى ضيعته. وكانت هواية هذا المالك التنقيب عن الآثار. كان رجلاً شاذاً، غشيماً، ضعيفاً، لا يني عن الابتسام. لقد كانت تميل دائماً إلى الشواذ من الناس. وأمضت في تلك الضيعة ستة وعشرين يوماً. وأنا دائماً كنتُ أحصي أيام غرامياتها إحصاءً دقيقاً. لستُ أدري لماذا، ربما ظننتُ أني قد اضطر إلى تذكيرها بهذا كله في يوم من الأيام. وفضلاً عن ذلك، فأنا لم أكن غير إنسان من لحم ودم، كما أني أعلل النفس في ذلك الحين بأني لا بد منتقمٌ يوماً.

وفي بعض الأحيان، كنت أشاهد لاريسا وهي ترمق أحدهم بنظرة لها معناها. فأقدّر ما يتلو ذلك: أن تنطلق معه!. ما أخطأني التقديرُ مرةً. وهكذا كنتُ أمتنع عن زيارتها. وفي الليل، كنتُ أفكر وأنا أصُرّ على أسناني: أأسم نفسي؟ كان الناس يضحكون مني في كل مدينة نذهب إليها. وحين كانت تفرغ من عاشقها، أعود إليها مقهور النفس، وطبعاً كنتُ أبدي التذمر فتحذرني بقولها:

ـ بطرس! لا تكن مجنوناً!.

وذات يوم، وقد أفلت مني زمام نفسي، سألتها:

ـ ألا يُخجلكِ أن تجعلي من رجلٍ كلباً؟.



فسددت إليّ نظرة وأجابت وهي تتنهد:

ـ أحقاً أنت رجل؟.

أدهشتني هذه التنهيدة بقدر ما هدأت نفسي، فأصبحتُ على الصبر أقدر من ذي قبل، وعشقتْ ذات مرة كاتباً مسرحياً، كان رجلاً متعجرفاً فظاً. ولا بدّ أنه قرصها تحت مائدة العشاء، فهبّت واقفة وقالت:

ـ بطرس! هذا السيد ينبغي أن يعود إلى زوجته. شيّعه إلى الباب.

وكان أن شيعته إلى الباب وإنما بشيء من الجفاء. لقد التقيت بكتّاب عديدين ووجدت أنهم جميعاً يتميزون بالنفاق والادعاء، شأنهم في ذلك شأن الممثلين. وجدتهم جميعاً كالراقصين على الحبال، أولئك الذين يمشون بحذر محافظةً على توازنهم، ويتلهفون على إرضاء الجميع.

وهكذا أمضيت في صحبة لاريسا خمس سنوات أحيا هذه الحياة البوهيمية في وسطٍ كله فضائح وعبث ونزوات. وفي السنة السادسة، وفي «تومسك» استقبلتُ حياة جديدة. أما أن هذه الحياة كانت خيراً من سابقتها أم أسوأ، فلستُ أدري. والناس في سيبيريا يتميزون بالخشونة والصلابة، لكن لاريسا مثلت هناك مسرحية «نورا» وأبدعت في تمثيلها وأعجب الشباب بها. حاصرها أولئك السيبيريون وقد جلسوا حولها كالدببة، يلتهمونها بأعينهم. وأمطروها بالفراء، ورافقوها في نزهة بالزحافات وهم يملؤون الجو بدخان لفائفهم حتى أنني ـ وأنا لا أدخن ـ زاغ بصري وكدت أفقد الشعور. أما لاريسا فكانت في أشد حالات السرور، كانت كالنجم الساطع وجمالها يبدو أروع من ذي قبل. وفجأة، يبلغني أن اثنين من أغنياء المدينة قد تراهنا على اغتصابها قبل بدء العام الجديد.

دعوتهما إلى العشاء في غرفة خاصة في مطعم، وكنت أحمل معي



غدارتي... فقد كنا في سيبيريا، كما أنني كنتُ معتاداً العودة في ساعة متأخرة من الليل، قلتُ لهذين الصيادين:

ـ اعدلا عن ذلك الرهان وإياكما وإزعاج لاريسا أنتونوفنا. أنا لا يربطني بالحياة أي سبب، فإذا رأيتُ أنكما لم ترتدعا فسأحطم رأسيكما تحطيماً.

وحاولا مهاجمتي لكني أرعبتهما بإشهار غدارتي، وعندئذ تحققا من أن الأمر جدي.

قالا: حسن جداً.

وحاولا أن يثملاني بالشراب لكني لم أثمل. هما فقط قد ثملا. كان أحدهما ملتحياً نحيلاً، له مظهر القديسين ولكن كانت له عينا قاطع طريق. أما الآخر فكان بديناً أحمر البشرة بذيء اللسان. وعندما ثمل ذو اللحية قدّم إليّ خاتمه المرصع بالياقوت وألح عليّ في أن أقبله كهدية، وهذا كله كاد أن ينتهي إلى خير لو لم تعلم لاريسا ـ لسوء حظها ـ بأمر الرهان. لقد رأيتها كثيراً وهي غاضبة، ولكن ليس بهذا الشكل!. كانت واقفة وظهرها إليّ، ترقب من خلف النافذة العاصفة الثلجية. وببطء وبتثاقل أدارت إليّ وجهاً غريباً كل الغرابة، ينم عن الهياج الشديد، أمرتني:

ـ ادعُ هذين الوحشين إلى العشاء في منزلي.

وجلسنا نحن الأربعة إلى العشاء. وكانت لاريسا ترتدي أفخر الثياب، مبتهجة، مليحة الدعابة، ثم إذا بها تقطع مزاحها فجأة وتقول:

ـ لقد دعوتكما إلى العشاء لأقول لكما إنكما سافلان.

فضحكا ظناً منهما أنها ماضية في المزاح، لكنها أخذت تكيل لهما حتى احمر وجهاهما وأوشكا أن يعتديا عليها. وحينئذٍ قمت بطردهما. أما



هي، فوقفت في وسط الغرفة تدلك وجهها بيديها وتنظر إليّ كما لو كنت رجلاً غريباً لا تعرفه. قالت لي:

ـ وأنت أيضاً، امضِ! اذهب!.

خشيتُ أن أدعها بمفردها، لكني لم أقوَ على مخالفة أمرها، فمضيت.

وبعد أسبوع أو نحوه، وأثناء ما كانت تمثل، صفر أصغر الجالسين في المقاعد العلوية. بدأ الصغير من فوق فردت عليه من تحت موجة إسكات، وساد الهرج والمرج وصرخت النساء. لكن لاريسا استمرت في تمثيلها حتى نهاية الفصل. وهرولت إلى غرفتها فوجدتها جالسة أمام المرآة في هدوء، تضع البودرة على وجهها. سألتني:

ـ طبعاً، هما اللذان دبّرا ذلك؟.

فقلت: جائز. لستُ واثقاً.

ثم كان أن اقتحم الجمهور غرفتها وأخذوا في الاعتذار إليها وتقبيل يديها. فابتسمت تلطفاً، لكن عينيها كانتا زائغتين يتطاير منهما الشرر. وفي اليوم التالي تكرر الشيء نفسه: صفير وجلبة أثناء التمثيل. وبعض العراك أثناء فترة الاستراحة تدخّل فيه البوليس. وفي اليوم التالي قابلها رئيس البوليس، كان سكيراً، فظاً. ولا أعلم ماذا قال لها، ولكنها أسرت إلي في الليلة نفسها بأنها ستسافر إلى پرم حيث كان يمتلك مدير فرقتها مسرحاً آخر. وأثناء ما كنا جالسين في ديوان القطار، قالت لي:

ـ والآن يا بطرس. يا عزيزي، أترثي لي؟. إن هذا معناه أن الأمور لا تجري على ما يرام.

ثم سألتني هامسة وصوتها ينم عن الجزع:

ـ أنا لا موهبة لدي. أنا فاشلة، عاجزة عن التأثير في الجمهور. بربك قل لي الحقيقة!.



وكنتُ أعلم الحقيقة ولا أقوى على قولها، ولستُ أدري ماذا كانت تفعل بي لو أني قلت لها هذه الحقيقة... فاجتهدت أن أحوّل تفكيرها عن هذا الموضوع لكنها لم تكف عن الكلام فيه وسألتني:

ـ لماذا؟.

وكان صوت عجلات القطار يدوي كالرعد. وكل شيء خلف زجاج النافذة يتحرك ويتمايل. تمتمت وهي تنظر من وراء النافذة:

ـ أنا في تدهور سريع... سريع...

ما تكلمتْ بمثل هذا الصوت المتوجع من قبل، والواقع أنها كانت محقة في الشكوى: فقد أمضت في التمثيل أكثر من عشرة أعوام، بينما ظل اسمها مجهولاً. فلم تُستدعَ مرة للتمثيل في المدن الكبرى وإنما طفنا، هي وأنا، في المدن الصغيرة، وبذلك أضاعت كل ثروتها. وكل ما بقي لها هو جمالها ونضارتها كأنما وُهبا لها إلى الأبد.

وسكتَ محدثي كأنما قد اختنق. وأرخى يديه ثم حركهما بطريقة غريبة وقبض على ذراعي الكرسي. ثم مال إلى الأمام وراح يتطلع إلى الرقعة الداكنة التي تبدو من خلف النافذة وخيوط المطر تخترق فقاعات الضوء الملونة أسلاكاً من فولاذ. وبعينين مفتوحتين لآخرهما، طفق يصغي لحظات قليلة إلى وقع قطرات المطر، وخرير الماء ينحدر إلى البالوعات. وحين عاود الحديث، بدا وجهه الضامر الأشهب أكثر صرامة:

ووصلنا إلى «پرم»، وفوق المدينة، كانت العاصفة الثلجية تعوي في ظلام الليل وتدوي وتنوح كأنما الشياطين تمرح في أرجاء الكون. خُيّل إلينا أننا لم نعد نسير فوق الأرض، وإنما اختُطفنا منها وحُملنا فوق سحب بيضاء إلى مكان مجهول. دام هذا الكرب ثلاثة أيام، وذات أصيل، دعتني



لاريسا إلى تناول الشاي معها. لبيت الدعوة فوجدتها شاردة الذهن مجهدة، ترتدي ثوباً بلون الخمر موشى بالذهب، وشعرها مستلق على ظهرها ـ بدت في عينيّ كأنها فتاة، ومع ذلك فإنها كانت تناهز وقتئذٍ الأربعين من عمرها، كانت في جلستها يوم ذاك وديعة عذبة، وكانت قد نحفت خلال هذه الأيام الثلاثة. قالت لي:

ـ حبيبي! صديقي المسكين! ماذا كنتُ أفعل بدونك؟ لكن ها قد تحطمت حياتك ثمناً لتفانيك في حبي، أنا التي حطمتها، أليس كذلك؟.

أما أنا ففقدت كل سيطرة على أعصابي. ما كلمتني هكذا أبداً، ركعت على الأرض وقبلت قدميها وأنا أتمتم:

ـ نعم... حطمتِها.

فهمستْ وهي تداعب شعري:

ـ تماماً؟

وتساقطت دموعها الدافئة على عنقي، وهنا احتويتها بين ذراعي لأول مرة، وتضاعف شعوري بالشقاء، وحين عدتُ إلى صوابي، أبصرت بها جالسة على الفراش نصف عارية، والهدوء العميق يرتسم على وجهها، ثم تناهى إليَّ صوتها حالماً:

ـ ها قد أصبحنا زوجين. مسرور؟ والآن فلنشرب الشاي سوياً، وسآمر بقدر من الشامبانيا.

تثلجت أطرافي، وألقيت بنفسي عند قدميها أصرخ بصوت متقطع:

ـ إنك لا تحبينني، ولا تشعرين نحوي بأي ميل.

فوثبت من الفراش، وانطلقت في أرجاء الغرفة تضرب صدرها بيدها ثم همست وأنفاسها تتلاحق بسرعة:



ـ حبيبي! ماذا عساي أن أفعل إذا كنت لا أستطيع. إذا كنت فقدتُ كل شيء. حاول أن تفهم ـ فقدتُ كل شيء...!.

يا سلام! لقد فهمت ذلك حتى صعقني الفهم، فبقيت جالساً على الأرض والألم يدغدغني بينما هي تتمشى في الغرفة **وجسدها العاري يتألق جمالاً ولا يثيرني!.**

صرختْ: ضيّعتُ شبابي مسرة لأغبياء!.

فتوسلتُ إليها أن تهجر المسرح وتصحبني إلى الخارج:

ـ إن معي مالاً كافياً. بربك ارحمي نفسك!.

فقالت:

ـ لا، مستحيل! مستحيل! لا أستطيع أن أصدق أن ليس لدي موهبة. ولكن أنت، يجب أن تذهب. كفاك ألماً. كفاك عذاباً. اذهب قبل فوات الوقت. فليس هناك حب على سبيل الشفقة، إن هو إلا إهانة. إنك صديق عزيز، صديق يندر وجود مثله، فحرام أن تهلك في صحبتي وتتحطم بسببي...

مضت تحدثني هكذا مدة طويلة في شيء كثير من النبل والحرارة، لكنها كانت تطلب المستحيل. أجلستها على الأريكة ثم جلستُ على الأرض عند قدميها وقلت لها:

ـ لا حياة لي بعيداً عنك، لا يمكنني أن أتركك. عيشي كما يعجبك وسأظل دائماً إلى جانبك.

ـ لا، ليس رغماً عنك...

يا إلهي! كم ذا بكيت...



وطفق يبكي هو أيضاً. سالت على خديه الصفراوين دموع شحيحة تخللت لحيته، فهز رأسه دون أن يمسح خديه وتابع حديثه مبهور الأنفاس:

صحبتها بعد هذا سبع سنوات أخرى. لكأنما كان الشيطان قد نصب نفسه بينها وبيني وأمسك بأيادينا لكنه يسخر مني ولا يدعها تأتي إلي. ومن المتعذر ومن المخجل أيضاً أن أرى كل ما عانيته! وهي كذلك لم تعانِ أقل مني. ففي المسرح سارت الأمور من سيّء إلى أسوأ. فما كانت لاريسا محبوبة يوماً من زميلاتها الممثلات اللائي كنّ يدبّرن لها المكائد باستمرار، ثم أخذت علاقتها بهن تزداد سوءاً في الأعوام الأخيرة ربما لأن لاريسا كانت قد بدأت تحسن معاملتهن بعد أن تلاشى احتقارها للناس. هناك قانون غريب في هذه الحياة: فكلما بعد الناس عنك كلما ملكتهم، وكلما اقتربوا منك كلما تمردوا، وكان براجين يقول: «لا تسمح لامرأة أن تجلس على ركبتك فإنها لن تلبث طويلاً حتى تأخذ بخناقك»!. ويمكنك أن تقول هذا عن جميع الناس، لا المرأة فحسب. وبطبيعة الحال، كان الممثلون يهيمون بلاريسا حباً فكرهها الممثلات وحسدنها. وكلنا يعلم أن ليس أسهل من الكذب والافتراء. أما قبل ذلك، فإن لاريسا كانت تعرف كيف تلزم الناس حدهم، ولم تكن تعرف الحسد ولا التباهي بما ليس لها أو بقريحتها أو بثقافتها الرفيعة. إلا أنني بدأت ألمس أنه بعد أن فقدت ثقتها بنفسها أخذت تتباهى بما ليس لها كأن تتحدث عن نجاحها الرائع في كذا وكذا من المدن بينما أنا واثق أنها لم تنل أي نجاح. وطبعاً، كان الممثلون أيضاً على ثقة من ذلك، فكانوا يسخرون منها مع أنهم جميعاً كانوا يتباهون بما لهم. وكانت تريهم هداياي إليها زاعمة أنها من جمهور المعجبين. كذلك زعمت أن ستانسلافسكي نفسه ألح عليها أن تعمل بمسرحه في موسكو ـ في حين أن شيئاً من ذلك لم يحدث مطلقاً...



كذلك أخذت تتباهى بقريحتها وثقافتها. وأخيراً، تتأثر حياتها بأحد الأطباء تأثيراً ليس بالهيّن. كان رجلاً شاذاً، من البين أنه قد أخطأ ـ هو أيضاً ـ طريقه في الحياة. وكان قصير القامة، أنيقاً، نظافته أخاذة، يبدو عليه أنه ليس روسياً صميماً. كان يرتدي حلة صغيرة غريبة الشكل، ويبدو شاباً رغم شيب فوديه. لو أن كوليا عاش لمثل سنه، لبدا على هذه الصورة. وكان قصير الشعر، وعيناه السوداوان الوادعتان تبتسمان خلف منظاريه ابتسامة كاسفة. أتى هذا الطبيب يوماً ووجد أن صحة لاريسا ليست بخير فألقى مراسيه إلى جانبها: ثم صار يتردد عليها كل يوم. ولم أستطع أن أفهم حقيقة نواياه: أخبيثة هي أم طيبة؟ ترى أكان السبب في ذلك حزنه البالغ الذي لون أقواله بالمرارة الشديدة؟ كان لا يني عن التحدث في أمور مكدرة، ولكن كان يبدو أنه يتكلم برغمه ولذا لم يكن لأقواله أي تأثير في النفس. كانت لاريسا تنهي إليه ما تحس من سقم فيقول:

ـ إنه اقتراب ذلك الكرب الحزين الذي نسميه خطأ: بهجة الشيخوخة.

وكان يقول:

ـ إننا لأبطال جميعاً، فنحن نتعلم كيف ننسى أننا محكوم علينا بالموت، فحياتنا مأساة ملأى بخفة روح ساخرة.

وكان يقول للاريسا أقوالاً مهينة عن الحب:

ـ حب الرجل للمرأة هو كذلك الفعل المشؤوم الذي به حاول الله ـ عبثاً ـ أن يخلق من العدم والفراغ عالماً بديعاً.

ربما تظن أن لاريسا قد استاءت من هذا القول ـ أليس مؤكداً أنها لم تكن «عدماً» أو «فراغاً»؟ لكنها لم تستنكره مطلقاً، الأمر الذي أثار بالغ دهشتي. واعتاد التحدث طوال الليل، وسرعان ما أدركتُ أنها قد عشقت



الطبيب. آلمني ذلك طبعاً. فأنا لم أفقد الأمل في كسب حبها بفضل إصراري، إلا أنني لم أحمل للطبيب أية كراهية، بل بالعكس ازدادت صلتي به توثقاً. لم أعرف فيه الخداع، فذات يوم قال لي:

ـ أنا أعلم أني أحتسي خمرتك وأقبل امرأتك.

فأجبته: **لا، إنها ليست لي... وإنما لشقائها.**

فثبّتَ فيّ نظره، وقال بيتين من الشعر ـ وكان يحب التحدث به:

ـ أتعلم قول القائل:

إن القدر يسومنا العذاب.

لعلمه أننا مذعنون على الدوام...

ـ لكني أرى أن لاريسا سعيدة معك، وأحمد الله على ذلك.

فقال لي:

ـ يا لك من رجل عجيب.

قلت: وأنت أيضاً:

والتقت أنظارنا فابتسمنا، وشربنا نخب كلينا، كان مسرفاً في الشراب. والحق أن لاريسا كانت سعيدة معه: كانت تلازم البيت أغلب الوقت، وتمتعت بمزيد من الراحة النفسية، وخفّ ميلها إلى اللهو.

أما مناقشاتها مع الطبيب فكانت جدية وقيمة، مع أنها كانت تدور حول أفكار عادية: الله والموت والحب. وكانا يبحثان هذه الأفكار بتعمق، لدرجة أن الأمر كان يخيفني في بعض الأحيان ـ لكأنما لم يعد المتحدثان بشراً وإنما... لست أدري بمَ أقارنهما! كانا روحين تتباريان بالكلام في فراغ ليل ذي سكون. وكانا يختلفان في الرأي لكنهما كانا يتناقشان في هدوء



وكل منهما يصغي بانتباه لما يقوله الآخر. زعم الطبيب أن الحياة الإنسانية شبيهة بمسار مقذوف موجه إلى هدف مجهول، فالحياة عبث مطلق. ذكرتني هذه الكلمات اليائسة بكوليا. أما لاريسا، فعلى العكس مما زعم الطبيب، حاولت أن تثبت بإصرار شديد أن ثمة غاية عليا للحياة وإنما يشعر بوجود هذه الغاية المرأة وحدها، المرأة التي هي المحرك لكل الرغبات والعواطف: الآثم منها والطاهر. وكنت أحب في لاريسا اعتزازها الشديد بنفسها، فبدت لي هذه الأفكار لب الحقيقة، ويحضرني قولها:

ـ ثمة شيء تستطيعه المرأة ولا يدركه الرجل: المرأة تشعر بمولد حياة جديدة في أحشائها، فالمرأة هي المصدر الدائم لاستمرار النوع الإنساني. وإنها لتشعر أيضاً بأنها الشرارة التي تشعل أروع الفكر، والباعث على كل عمل مجيد، وما الشعر والجمال إلا من وحيها، وعالم يخلو من المرأة فإنكم تعيشون فيه كالوحوش لا همّ لكم سوى الأكل. ليس شيء أصلب من المرأة أو أسهل منها على الفهم، وليس لكم من شيء تعتمدون عليه إلا هي.

وذات يوم قالت:

ـ تموت الأمهات ميتة أكثر راحة من ميتة الآباء لأنهن يشعرن باستمرار الحياة.

فقال الطبيب باسماً في تهكم:

ـ بل ميتة الحيوانات أكثر راحة من ميتة النساء.

وأثار هذا القول مشادة بينهما. فأحياناً كل شيء ينفجر في نفس لاريسا كالعاصفة فنتطاير، الطبيب وأنا، تطاير ذرات من التراب. كان ذلك يحدث فجأة دائماً، وبلا أي سبب، إنما تثيره كلمات معدودات. وأذكر أن



ثلاثتنا جمعنا مجلس في يوم من الأيام، وكانت لاريسا صامتة وأنا أتحدث عن رحلتي إلى موسكو حين قال الطبيب فجأة وبهدوء:

ـ المجرمون والنساء يمكنهم أن يسمعوا وأنت تفكر فيهم...

وكم ذا غضبتْ! صعقتها هذه الكلمات. فكان أن عربدتْ طيلة أيام ثلاثة حتى آلمها قلبها فلزمت الفراش.

وأصيب الطبيب بالسل، ولم يلبث طويلاً حتى رحل إلى سويسرا. وهنا تأتي فترة من الجنون الحق. وتبدو لاريسا كأنما تتدحرج على سفح جبل مقتفية أثر شبابها. ولقد لاحظت أن ذلك يحدث لنساء كثيرات. فعندما تبلغ إحداهن عامها الأربعين وتصل إلى سن اليأس، تضطرب وتطرح وراءها الحياء كأنها تريد أن تلتهم في عام واحد كل ما لم يسعفها الوقت بنيله فيما مضى من حياتها. كذلك كانت لاريسا في تلك الفترة: كان يحيط بها سرب من الصبية المراهقين، والممثلين ـ وكانت تحتقرهم قبل ذلك ـ أما الطلبة فكانوا يتصايحون من حولها، وقد تصببوا عرقاً وعيونهم المشتعلة تنم عن التهيج. وخلال شهر واحد، عشقت اثنين معاً، زجال هزلي، وطالب شويعر كان يدّعي أنه شاعر عبقري، أما بوشكين فجاهل. وطبعاً، راح الزجال يتغنى بحبه المظفر، فلكمتُه على فكه الحليق وأضفتُ إلى هذه اللكمة خمسة آلاف روبل وقلت له أن يرحل إلى ڤالوجا، وقد تعمدتُ اختيار هذه البلدة الصغيرة الموحشة الكئيبة. ولقد رحل.

كانت هذه هي أسوأ سنيّ حياتي. كنتُ في بعض الأحيان أغادر لاريسا عند المساء، وأقضي الليل كله هائماً في الشوارع حتى مطلع الفجر، ساهراً على كنزي الذي سرق مني وامتلكه الآخرون...

وأثناء تجوالي وسط السكون، وقد حملت معي قلباً مهاناً مفعماً



بالمرارة، كنتُ أستغرق في التفكير: ما قيمة الحياة بلا سعادة؟ وبحب ضائع؟ وأتطلع إلى نوافذ البيوت: هناك في كل بيت أحباء، بينما أنا جائع القلب، بائس في وحدتي. وكم من ليلة كهذه مرت بي؟ صعبٌ على رجل وحيد أن يجر ظله على الأرض في ليلة مقمرة.

أما لاريسا فأخذت تقدم للجمهور الفكاهات، متنقلة على المسرح نصف عارية قد كشفت ساقيها وصدرها. كدت أجن، فتوسلت إليها:

ـ لنرحل إلى الخارج!.

لكنها لم توافق. فكتبت إلى الطبيب في سويسرا أسأله أن يعينني على إقناعها، فكان رده غامضاً، ولا يخلو من السخرية. لم أفهم منه شيئاً إن هي إلا حاشية بأسفل الرسالة بقيت في ذاكرتي وإنما لسخافتها. ها هي:

«قال ليون تولستوي: فكرة الخلود مرض من أمراض العقل. أما أنا فأقول: الحب مرض من أمراض الخيال. فلا يمارس الحب بالطريقة الطبيعية إلا الأرانب والخنازير».

وطريقة عرضه لفكرته سخيفة.

وهذه خصلة سيئة أخرى لاحظتها في المتعلمين من الناس: فهم يختزنون في عقولهم قدراً كبيراً من متنوع الأفكار ـ وسواء أكان الدافع لهم هو حب التفاخر بها كما يتفاخر التجار بالمال أو أنهم يجدون الاحتفاظ بها لأنفسهم أمراً عسيراً، فإنهم إنما يسرحون هذه الأفكار كما ـ ولا مؤاخذة ـ يسرح الفلاح قمله. الحق أنه ينبغي على المرء أن يتداول الأفكار بحذر، فإن أحداً لا يعلم حق العلم ما هو الصواب منها وما الخطأ، وغالباً ما تكون الفكرة بالنسبة إلى الإنسان كإبرة مخيفة في طعام بالنسبة إلى كلب، يزدرد الكلب الطعام فيقاسي آلاماً مبرحة ويموت في أغلب الأحيان. حتى أنا، وأنا رجل ظنون، أحس أحياناً أني مثقل بأفكار الغير وأردد أقوالهم.



أجل، تدهورت أحوال لاريسا سريعاً. كنتُ أراها على هذه الحال فآخذ في التفكير: أين كبرياؤها وعظمتها؟ وأبكاني وملأني يأساً أن أراها تعرض على المسرح جسدها العاري كما يعرض الشحاذ عاهاته ملتمساً الإحسان. وبلغ الأمر أقصاه حين بدأت تلتفت إليّ أنا أيضاً ـ كان هذا أشد الأشياء إيلاماً ومرارة.

كانت تحيطني بذراعيها وتتمتم:

ـ أنا قد ضيعت حياتك يا بطرس، يا حبيبي. اغتفر لي هذا، وقبلني!. وأقبلها: أخفي ألمي ورثائي لها وأقبلها. بل وكنت أبذل جهدي لأدخل السرور على قلبها حتى أنتشلها من الوحل الذي غرزت فيه نفسها. والواقع أنها كانت متألمة لخضوعها لسلطان الجسد الشره، وظهرت على وجهها أمارات التقدم في السن، فلم تعد يلتقط لها الصور بسهولة كما فيما مضى، لكن جسدها كان لا يزال شرهاً ناضراً. أما أنا فكنت قد جاوزت الأربعين وانطفأت فيّ شعلة الرجولة. ومن المخيف، ومن المخجل أيضاً، أن أستدعي إلى ذهني نوبات لاريسا الغرامية. سبحانك يا رب! كم هي ذا قدرة الرجل على الاحتمال؟!!!.

وفي بعض الأحيان، عندما كان يغلبها النعاس، كنتُ أظل جالساً إلى جانبها وأمعن النظر فيها، هامساً في جنون:

ـ أهذا أنت؟ أحقاً هذا أنت؟.

وخلف النوافذ كانت تعوي العاصفة الثلجية ويتخبط الجليد ويبعث القمر بسناه... وآه من تلك الليالي المقمرة التي تبدي كل شيء للعيون! كنتُ لا أكاد أطيقها إن في الصيف أو في الشتاء... إنها تطرد النوم وتنادي التفكير البارد الصريح ـ عليها اللعنة!.



ولستُ أفهم كيف كنت أغترف من هذا الشقاء وأجرع حتى الثمالة دون أن يصيبني الجنون. ولست أدري كيف رضيت لاريسا عن نفسها، تلك النفس التي استسلمت بسهولة لعذاب عاطفة فات أوانها. زحفتُ إليها على ركبتي وتوسلت إليها أن ترحل معي... لكنها لم توافق. فكما لا يمكن أن تنتزع سكيراً من حانة، لم يكن باستطاعة أحد أن ينتشلها من هاوية المسرح. وأخذ الناس يسخرون منها علانية وبلا أدنى رحمة، الأمر الذي كانت تلاحظه طبعاً. وهكذا راحت تشرب الخمر بإفراط متزايد. وتبدي في موقفها من بعضهم خوفاً غريباً ونوعاً من الدهاء بينما راحت تتملق البعض الآخر وتتزلف إليه. ولم تعد تحدث أحداً غيري عن انتصاراتها المسرحية. فطوال ليال بأكملها، كنت أسمع منها العبارات نفسها:

ـ أتذكر يا بطرس أيام كنا في بسكوف؟... وأيام كنا في خرش يا بطرس.

وأصغي إليها، ولمرضاتها أمط في أكاذيبها وأخترع المزيد، وكانت تفهمني، فتصمت فجأة وتمعن النظر فيّ ثم تطوقني بذراعيها قائلة:

ـ كم تحبني يا أعز الناس عندي!.

ـ أحبك طبعاً. لكني أسألك أن تترفقي بنفسك.

ـ إن أقصى سخرية القدر هو الحب بلا أمل.

وبالطبع، كانت تعني حبها للطبيب. ما كنت أظن أنها أحبته بحق.

ـ ظننت الأمر عندها ليس سوى ومضة أخيرة، حلم، خيال.

وفي الرابعة والأربعين استبد بها داء القلب، وأخبرني الأطباء أنها لن تعيش طويلاً. وأخيراً، أقنعتها بالسفر إلى الخارج. ورغبت في سكنى السواحل. فنزلنا بالقرب من سان سباستيان، تلك المدينة الساحلية الصغيرة واستأجرنا بيتاً صغيراً يطل على البحر. وأحسنت تجهيزه بالأثاث كأنما كنت



أقول في نفسي: أترين يا لاريسا البيت الذي ستموتين فيه! وألفينا الحياة حلوة، هناك على ساحل المحيط، ثم إن المتكلمين بلغة أخرى خير دائماً من مواطنيك لأنك لا تفهم ماذا يقولون.

لم أكن أشعر بالضيق إلا أثناء الليل، والليل هناك كان يرخي سدوله مسرعاً: فما أن تغوص الشمس في المحيط حتى تزحف طلائع الليل من وراء قمم الجبال وتغزو الأرض والماء. وفي هدأة الليل، كان يذهلني ذلك الفراغ الشامل تحت نجوم السماء ومضايقات المحيط البالغة. فكان هدير الأمواج وعواؤها يضايقني بسخافته. كنتَ تطل من النافذة فتلمح شيئاً أسود اللون يتدحرج على الشاطئ كأنه سرب من الخيل ذات المعرفة البيضاء. وبينما السرب يرمح، إذا به يتوقف فجأة ويقفز عالياً ويضرب الأرض، فتتأوه هذه، ويهتز منزلنا الصغير ويولول زجاج النوافذ.

ومع ذلك فقد كنتُ أفضّل الحياة في جو يسوده الحركة والضوضاء، فما كنتُ أطيق الليالي الهادئة. وكثيراً ما كانت تحضرني أقوال كوليا عن شقاء العالم وكلمات الطبيب الآثمة البغيضة. والحق أن دنيانا هذه ترعاها حكمة الله التي ترعى كل كوكب، لكن أهل الأرض في تباعد وعداء. وإذ يأخذك التفكير في هذا كله، يتبيّن لك بجلاء مدى احتياج الرجل إلى المرأة التي يحبها. كانت لاريسا على صواب! فمَن غير المرأة يستطيع أن ينتشلك من عناء الوحدة. في مثل هذه الليالي، وقد تملكتني هذه الأفكار، كان حبي للاريسا يتجاوز المدى.

كنتُ أتمدد على سريري أو أتمشى في غرفتي حافي القدمين، انتظاراً للمحيط أن يهدر فيبلغني إذ ذاك صوت لاريسا تناديني. أو لعلها قد نادتني ولم أسمع؟ وأفتح باب غرفتها وأقف على العتبة أتسمع صوت أنفاسها. وكنت أجدها في أغلب الأحيان جالسة مستندة إلى ظهر الفراش



وكلها بياض كأنما يلفها الزبد، مغمضة العينين. تنصت دون حراك إلى هدير المحيط والوداعة والحسرة تلوحان على وجهها. لقد كانت أريبة، فهي كانت تعلم أنها في آخر أيامها، لكن كبرياءها كانت تمنعها من الكلام في ذلك. ثم أجلس على الأرض قرب الباب والحزن يخنقني، لا أنا بالحي ولا أنا بالميت، وأظل جالساً هكذا ساعتين أو ثلاثاً... وفي بعض الأحيان كانت تفهم أني يقظان فتناديني:

ـ بطرس! تعال يا حبيبي. اجلس معي قليلاً...

ثم تردد في همس أقوالها السابقة:

ـ أتذكر أيام كانا في «كورسك»؟ أتذكر الحفاوة التي استقبلني بها الجمهور؟.

وتذكرت طبعاً ما كانت تتخيله. قلت:

ـ حقاً، لقد كان استقبالاً رائعاً... حياتك كلها رائعة.

ويعييها الكلام فتسكت، فأسند رأسي إلى حافة الفراش عند قدميها، وأصلي في سري قبل أن يغلبني النعاس:

ـ حبيبتي... بهجة حياتي، لا تموتي!.

لكنها تقول لي ذات يوم وقد بدا عليها الانزعاج والحزن:

ـ رباه! ما أسرع ما تشيب!.

وإذ رأيت أن شيبي يزعجها، صبغت شعري. إنه لمما لا يطاق يا سيدي أن تجد نفسك عائشاً لتشهد موت المرأة التي تحبها! وهكذا عشتُ مشلول الروح مائتين وثمانية أيام، وفي اليوم التاسع بعد المائتين ماتت لاريسا. في الشرفة. كان يوماً خانقاً، ساكناً. حتى المحيط كان هادئاً. وفي صباحه قالت لي:

ـ إنني أشعر اليوم بتحسن كبير.



وخرجتْ إلى الشرفة حيث جلستْ، وكعادتها أخذت تتطلع في صمتٍ إلى الأمواج تتلاطم في عبث. وكانت ممرضتها أجاتا قد أحضرت لها طاقة من الزهر. فلاطفتها بيديها الغاليتين وأخذت تشمها. وفجأة وقفتْ، وأمسكت بحاجز الشرفة، وترنحتْ. وفي الحال... كنتُ قد تلقيتها بين ذراعي.

ووقف الرجل وألقى حواليه نظرة مجنونة، ثم دفع يديه إلى جيبه واستند إلى المدفأة:

ـ هذه هي القصة! وهناك، في مقبرة صغيرة بسفح الجبل دفنتها. لم أرد أن أنقلها إلى روسيا حيث لم تذق طعم السعادة. وأنا نفسي، ظللت أكثر من عام لا أستطيع العودة إلى هنا حيث لم يكن غير الشقاء غذاء لروحي.

ثم قطب جبينه ونظر إلي، وقال بلهجة صارمة:

ـ وعلى أية حال، لا تظنن أنني أندب حظي مع لاريسا. إنما رويت لك هذا كله إجابة لرغبتك. وعلى العموم، الشكوى لا فائدة منها. فالإنسان كالحجر، يصم أذنيه عن أخيه الإنسان.

وإلى جانب المدفأة البيضاء اللون، بدا وجهه قاتماً وخاصة ما تحت العينين. كان يقف منتصب القامة، مغمض العينين، يبدو عليه أنه ازداد نحافة على مر الليل.

وخلف النافذة كان يشتد لمعان خيوط المطر، ومصباح الزقاق لم يعد به سوى ذبالة من نور. ومن بعيد، كان يتناهى رنين أجراس الكنيسة ضعيفاً كهديل الحمام: وكانت تدق إيذاناً ببدء صلاة الفجر.

تابع الرجل حديثه على مضض وبصوت خفيض:

ـ على أنني عدت فيما بعد إلى روسيا، واتخذت هذا المسكن لأن



أمامه كانت تقيم لاريسا... ولأن كل شيء بدأ هاهنا. وقمتُ بطباعة صورها، وها أنا ذا أبيعها في شكل بطاقات بريد، ليس من أجل الربح طبعاً. هذه هي المسألة...

ومد يده الطويلة النحيلة جهة ركن الغرفة مشيراً إلى آنية الزهور الجافة:

ـ هذه الزهور هي آخر ما أمسكته بيديها ـ لكن.

ها قد ذوت! أشاروا عليّ بغمسها في ماء الجير ـ لكن ذلك لم يجدِ. طليتها فلم يجدِ هذا أيضاً. لقد فقدت مظهرها الطبيعي.

ومضى إلى ركن الغرفة، وبمنتهى الحرص لمس بأصابعه النحيلة كتلة الزهور الجافة المتربة، ثم قال بصوت أجش:

ـ إنها تتفتت إلى تراب، وليس من سبيل إلى إيقاف هذا الفناء.




Arab_Books

كفـــاح

الجزء الاول

كانا يتمددان في الظل، على شاطئ النهر، ينتظران الطوف[1]. ظلا طويلاً يتطلعان إلى أمواج نهر كوبان السريعة المحملة بالطمي. وهي تتلاطم عند أقدامهما. ثم غلب النعاس لنكا بينما حاول الجد آرخب النوم عبثاً، فقد كان يعاني آلاماً حادة مستمرة تمزق صدره تمزيقاً.

وفوق الأرض السمراء، كان وجهاهما يبدوان كشيئين محزنين متجهمين. يفترقان في الحجم لكنهما يتماثلان فيما يلطخهما من تراب، وتحت وطأة الإعياء وحرارة الجو اصطبغ وجها هذين الآدميين بلون يحاكي لون الأسمال البالية التي كانا يتلفعان بها.

كان الجد آرخب، بنحافته وطوله، يتمدد على لسان رملي يمتد بحذاء الضفة كأنه شريط ضارب للحمرة يفصل النهر عن التل. أما لنكا، وقد رقد إلى جوار جده هزيلاً صغيراً متكوراً، فكان أشبه بغصن انتزع من شجرة ولم ينم بعد، قد جرفته الأمواج العاتية الباردة ثم قذفته على الرمال.

أسند الجد رأسه على مرفقه وراح يحدق في الضفة المقابلة وقد غمرها ضوء الشمس، وحف بها الغاب فبدا الطوف بين أغصانه أشبه بخط قاتم اللون. وكان يجثم فوق المكان كآبة وحزن.

---

(1) - أو (المعدية).



وعند أقاصي البراري، كانت تنمحي معالم الطريق أو الشريط الرمادي المؤدي إلى النهر. كان طريقاً مليئاً بالتراب لدرجة أنه بعث في نفس الجد القلق، فقد كانت عينا الشيخ آرخب تطرفان بين أجفان حمراء منتفخة، ونظرتهما تنم عن القلق وانقباض الصدر وثورة النفس. كان يُقرأ على صفحة وجهه المجعد حزن شديد يبلغ حدّ الضيق بكل شيء، وانتابه السعال. فسد فمه بيده، ملقياً على حفيده نظرة قلقة. كان سعاله حاداً، يفتت سماعُه الأكباد. اضطر الجد إلى النهوض، وثمة دموع كانت تنهمر من عينيه.

لم يكن يكدر صفو سكون البراري العميق، وهي تضوي في وهج الشمس، إلا هذا السعال وخرير الماء الناعم. وعلى مرمى البصر، كان ينبسط السهل على ضفتي النهر، لكن نظر الجد الكليل لم يكن يدرك عند خط الأفق سنابل القمح الذهبية الناضجة، وهي تتموج تحت سماء صافية فتبهر بلمعانها البصر، وغير بعيد، كانت تقوم ثلاثة أشجار حور هزيلة تبدو كأنها تطول حيناً وتقصر حيناً آخر، وكان يلوح كأن السماء هناك تمتزج بحقول القمح فيتكون ما يشبه تلاطم الأمواج.

لكن هذا كله يختفي فجأة، وقد طواه سراب البراري الساطع. لكأنه نقاب شفاف لامع يتماوج من طرف الأفق حتى ضفة النهر، بل لكأنه هو نفسه، نهر ينبع من قمة السماء، فهو صافٍ مثلها، ليلطف جو البراري الحار كالأتون المتقد.

ثم لا يلبث هذا كله أن يختفي.

كان الجد آرخب يدعك عينيه حين تواجهه هذه الظاهرة التي يجهل حقيقتها، فهو قد كان ينتمي إلى روسيا العظمى ولم يطأ في شبابه أرض البراري حيث يقوده إليها الجوع اليوم، كان يظن، والحزن يعتريه، أن حرارة



هذه الصحراء أفقدته النظر كما أوهنت من قوة ساقيه اللتين عجزتا عن قطع ثلاثين فرسخاً كما اعتاد أن يقطع في مسقط رأسه. فإنه اليوم يكاد لا يقطع نصف هذه المسافة، إنه ليحس، منذ بضعة أيام بأنه مريض ومكدود ويستشعر نهايته، ومع أن هذه الفكرة لا تهوله، ومع أنه يعتبر الموت وظيفة عادية من وظائف الطبيعة إلا أنه تمنى لو مات في البلد الذي شهد مولده، هناك في ولاية «أورل». ثم إن التفكير في مستقبل حفيده يشجبه كثيراً. ماذا يجري للنكا بعد وفاته؟.

وكلما تساءل هذا السؤال ـ وما أكثر ما كان يتساءله كل يوم ـ كان يحس بشيء يحزّ في قلبه بينما تسري الرعدة في بدنه. وإذ ذاك يضيق صدره ويعاني عذاباً روحياً أليماً حتى إنه ليفكر في العودة إلى روسيا على الفور. لكنه يتذكر شبه جزيرة كريميه [1]، والبراري الجرداء، والفلاحين القساة السفهاء، وكلابهم الضخمة المفترسة، والتتر الأجلاف الطماعين، كما يتذكر حادثة معينة وقعت له في مدينة «طامان» وكادت تلقي بهما في السجن.

ـ أيعود إلى أقاصي روسيا!. إنه لن يبلغها قط.

سيفاجئه الموت في الطريق، أما هنا، في وادي كوبان، فإنه واجد على الأقل من يتصدق عليه، صحيح أن الناس هنا يغلب على طبعهم السخرية والغفلة، إلا أن الحظ يواتيه بين ظهرانيهم، إنهم ميسورو الحال، فما أسرع ما يتصدقون على الشحاذ وهو لما يستدر عطفهم، هنا، قد يستطيع تدبير أمر لنكا. ولن يكون مستقبل الطفل اليتيم في مسقط رأسه خيراً من مستقبله هنا.

---

(1) - شبه جزيرة تقع في جنوب روسيا وتطل على البحر الأسود.



ونظر الجدُّ إلى حفيده بعينين دامعتين، ومر بيده الخشنة على رأسه الصغير:

رفع الطفل إلى الشيخ وجهه الدقيق الملامح، ذا الأنف المدبب والشفتين الرفيعتين الشاحبتين، الذي أحرقت جلده حرارة البراري ورياحها. كانت عيناه الواسعتان العميقتا الزرقة تبرقان دوماً بفكرة ما، وتبدوان كبيرتين بالنسبة إلى وجهه النحيل الذي خلف الجدريّ آثاره على بشرته.

سأل الطفل: «هل أتى»؟. وغطى عينيه بيديه حتى يحسن الرؤيا. وحدق في النهر حيث كانت تتلألأ الشمس ونورها يخطف البصر. وما لبث أن أجاب بنفسه على تساؤله:

ـ لا! إنه لم يتحرك بعد! لا يزال باقياً في مكانه. ما الذي يجعله يأتي إلى هنا؟.

قال آرخب بصوت خافت، وكان لما يزال يداعب رأس حفيده:

ـ لا أحد يناديه، ولذا فإنه يظل في مكانه. هل نمت قليلاً؟

هز لنكا رأسه، وتمدد فوق الرمال. وطال الصمت لحظات.

قال لنكا، وقد شَخَصَ بصرَه إلى النهر:

ـ لو كنتُ أعرف العوم لاستحممت. كان صوته أجشَّ رتيباً. لكن التيار سريع جداً. لم أرَ مثله في بلادنا! لمَ يسرع هكذا؟ كأنه يخشى أن يصل متأخراً.

وأدار لنكا ظهره إلى النهر، والاستياء بادٍ على وجهه. أجاب الجد بعد لحظة تأمل:

ـ بل يمكنك الاستحمام! لننزع حزامينا. ونربطهما أحدهما بالآخر، ثم أربطك من رجلك، وهكذا يمكنك النزول إلى النهر دون أن تخشى شيئاً.



فرد لنكا على الفور:

ـ ما هذا! طريقتك غير معقولة! إن التيار بسرعته هذه سوف يجذبك... ونغرق نحن الاثنين.

ـ نغرق على الضفة؟ هذا جائز في قلب النهر.

قال: يجذبنا التيار! وهل هناك تيار! التيار لا يشتد إلا عندما يفيض النهر على جوانبه في الربيع... ولكن توجد هنا البراري والسهول الواسعة.

لكن لنكا كان قد أفرغ ما بجعبته، فلم يرد على جده. وإنما تناول كرة صغيرة من الطين الجاف وراح يحولها إلى تراب، وسيماء الجد والتفكير بادية عليه كالمعتاد.

كان الجد يطرف بعينيه، مطلقاً لأفكاره العنان، وقد راح يرقب حفيده.

قال لنكا في خُفُوت، بصوته الرتيب، وهو ينفض عن يديه الغبار:

ـ عجيب! لقد أمسكت بهذه الكرة من الطين وسحقتها فتحولت إلى تراب يكاد لا ترى ذراته.

فسأله الجد:

ـ وما وجه الغرابة في هذا؟.

وطفق يسعل بينما يتراءى له من خلال أدمعه عيني الطفل الكبيرتين وهما تبرقان في وجهه النحيل المليء بالبثور. وإذا هدأ سعاله، عاد يقول:

ـ لمَ تقول لي هذا؟.

ـ أجل!.

«قالها لنكا، وهو يهز رأسه. إنني أكلمك عن هذا. لأن. إن». وأشار بيده إلى ضفة النهر المقابلة.



ـ كم منزلاً بنى هناك! كم مدينة مررنا بها سوياً! هذا شيء يحير العقل! كما أن هناك أناساً في كل مكان.

لقد أفلتت منه الفكرة... فعاد لنكا إلى تأملاته وبصره شاخصاً في الفضاء. وبعد لحظة سكون، التصق الجد بالطفل وقال له بصوت هادئ:

ـ أمّا إنك لحكيم! أقوالك عين الصواب: كل شيء هو من تراب المدن، الناس، نحن الاثنان: تراب! آه لنكا، يا حبيبي لنكا! إنك لا تعرف القراءة ولا الكتابة، ولكن يمكنك أن تشق طريقك في الحياة. إن لك عقل الشيوخ. أي رجل ستكون يا عصفوري الصغير يا عصفورة الجنة؟!.

وأحاط الجد رأس حفيده بذراعيه وقبّله.

صاح لنكا بحدة، وهو ينتزع شعيرات حمراء كخيوط الكتان من أصابع جدّه المرتعشة الكبيرة:

ـ دعني! ماذا تقول؟ تريد أن تقول إن المدن وكل ما حواليها تراب؟.

ـ هذه مشيئة ربنا يا حمامتي الصغيرة. كل شيء خلق من طين الأرض، والأرض نفسها ليست غير تراب. كل شيء فان! هذه هي المسألة! ومن أجل هذا يشقى الإنسان في هذه الدنيا! إنني لأرحب بالموت! ولكن ماذا تعمل من بعدي؟.

وهكذا ختم الجد حديثه مغتمّاً.

وما أن تناهت إلى لنكا هذه الجملة الأخيرة... حتى كانت تدفعه إلى التفكير في الموت وتكدره. أدار رأسه، واقتلع قشة من العشب أدخلها في فمه وراح يمضغها على مهل. لكن حديث جدّه المفضل! جرح قلبه الذي لا يلتئم. لقد راح الجد يقول بصوت رقيق وقد مال على الطفل:

ـ لِمَ لا تجيبني؟ ماذا أنت فاعل من بعدي؟.



فأجاب لنكا بلهجة تنم عن الضيق وشرود الذهن، وهو ينظر إلى جدّه بزاوية عينه:

ـ لقد قلت لك ذلك من قبل.

لم تكن تعجبه هذه المحاورات، فكثيراً ما كانت تنتهي بالشجار.

كان الجد يفيض في بحث أمرٍ قرب وفاته، وفي أول الأمر... كان لنكا يصغي إليه فتنهمر الدموع من عينيه إشفاقاً مما ينتظره من مصير. لكن لنكا سئم هذا الحديث على مر الأيام. فقد أصبح له رد فعل لا يقاومَ، فهو لم يعد يصغي إلى الجد وإنما يظل غارقاً في أفكاره الخاصة. ويلاحظ الجد ذلك فيغضب ويصرخ في لنكا قائلاً:

ـ إنك لا تحبني يا غبي، رغم الهم الذي أتحمله من أجلك.

بل وكان يلوم لنكا على تمنيه موته.

ـ ماذا تقول! يا مغفل، أنت لا يمكنك أن تفهم الحياة بعد. كم سنك! حوالي إحدى عشرة سنة. ثم إنك نحيل لا تصلح للعمل، أين سوف تذهب إذن؟... إلى أحد سوف يعينك! ومن المؤكد أنك إذا تحصلت على نقود فسوف يستكثرها عليك الآخرون. لكن الشحاذة غير مستحبة حتى بالنسبة إلى شيخ مثلي. إذ يجب عليك أن تنحني وتتوسل إلى كل عابر سبيل... سوف يشتمونك، وأحياناً سوف يضربونك، ويطاردونك... أتظنهم يعتبرون الشحاذ إنساناً! أبداً! اسألني أنا الذي قضيت عشر سنين هائماً في كل مكان. إنهم يعطونك كسرة خبز فيعتبرونها ألف روبل. الصدقة التي يلقونها إليك تفتح ـ في أنظارهم ـ أبواب الجنة. أتعلم لِمَ يتصدق الناس؟! إن هذا ليس بدافع من طيبتهم وإنما لكي ينعموا براحة البال. إنهم حين يعطونك كسرة خبز يمكنهم أن يزدردوا ما لذ وطاب دون أن يخجلوا من أنفسهم. فالرجل الشبعان بهيمة، لا يمكنه أن يشعر بالشفقة نحو الجائع



لأنه لا يمكنه أن يشعر بآلامه. الشبعان والجائع عدوان، لأن كلاً منهما يضع العقبات في طريق الآخر. فيستحيل عليهما إذاً أن يتراحما أو يفهم أحدهما الآخر. إن الشبعان لا يرى في الشحاذ سوى كومة وحل في طريقه.

وانتاب الجد الحماس من فرط الغضب والأسى. وسرى في شفتيه الارتعاش. وراحت عيناه المعتمتان الكليلتان تدوران في محجريهما الحمراوين، والتجاعيد على صفحة وجهه اليابسة تزداد عمقاً.

لم يكن لنكا يحب رؤيته على هذا الحال الذي كان يخيفه.

واستطرد الجد قائلاً:

ـ ولذا أسألك ماذا سوف تفعل في هذه الدنيا. إنك طفل صغير لا حول له، بينما العالم وحش مفترس: لسوف تقع بين أنيابه لقمة سائغة. وهذا هو ما لا أريد حدوثه. إنني أحبك يا طفلي العزيز، ليس لي سواك وأنت ليس لك سواي. فهل يحق لي أن أموت؟ إنني لا أستطيع أن أترك هذه الدنيا وأخلفك وحيداً... لمن إذن أسلمك؟ يا رب! لمَ تتخلى عن عبدك؟ دنيا ليس فيها غير الشقاء، ومع ذلك لا يمكنني أن أموت، من أجل هذا الطفل. إنه لواجب عليّ أن أحميه، لقد حملته على ذراعي طيلة الأعوام السبعة التي قضاها معي. رحمتك يا رب!.

وجلس الجد وراح يبكي ورأسه بين ركبتيه المرتعشتين. واعتراه التشنج، وارتفع النحيب من صدره المثقل بالهموم وراحت كتفاه تنتفضان.

كان النهر سريع الجريان يتدفق نحو سمت الأفق وأمواجه تتلاطم على الضفة في صخب، لكأنما كان ينهى بصوته الأجش، الشيخ عن البكاء. وكانت الشمس ترتفع في السماء الصافية، وتسطع ناشرة فوق الأرض بهجة ضاحكة وفتوراً هادئاً مسكراً يخفف من همهمة الأمواج الثائرة.



ـ آه! كفى! لا تئن أكثر من ذلك يا جدي!.

قالها لنكا بحدة، ثم دنا من الشيخ وأضاف قائلاً، وعلامات الغضب والاستياء بادية عليه: «هذا كله كلام معاد وممل! سوف لا أموت جوعاً! سوف أعمل في أي مطعم».

فقال الجد متأوهاً والدموع تطفر من عينيه:

ـ سيضربونك!.

صاح لنكا بعنف:

ـ جائز، وجائز ألا يقتلوني بالضرب! وما داموا لن يقتلوني، إذاً... فيمَ الخوف؟ سوف أبعد عن نفسي المشاكل، وأنجح في عملي.

وسكت فجأة، وفكر هنيهة، ثم استأنف حديثه مخفوض الصوت:

ـ وإن لزم الأمر، دخلت الدير.

فقال الجد متنهداً، وقد أنعشته هذه الفكرة:

ـ آه، لو يمكنك ذلك!.

ثم تملكته نوبة سعال خانق فأخذ جسده ينتفض.

تردد فوق رؤوسهم صدى صيحة وقعقعة عجلات. وانتشر في المكان صوت قوي ينادي:

ـ الطوف! الطوف!.

انتفض الشيخ والطفل. نهضا مسرعين والتقطا أكياسهما وعصيهما.

كانت تتقدم نحوهما عربة نقل ذات عجلتين، وهي تحدث ضجة حادة وتغوص في الرمال.

كان يقف فيها رجل من القوزاق، يتلفت برأسه المعصب بقلنسوة



من الكتان تصل حتى أذنيه. استنشق هذا الرجل ملء رئتيه استعداداً لإعادة النداء بفم مفغور. كانت أسنانه البيضاء تلمع في إطار من لحية سوداء ناعمة، وعيناه محتقنتين محملقتين من فرط ما يبذل من جهد. وتحت قميصه المتثائب ومعطفه الواسع الذي يكاد ينزلق من فوق كتفيه كان يبدو جسده الملوح المغطى بشعر كثيف. كانت تتفجر منه أمارات الصحة والعافية والقوة، نشطاً كحصان العربة، صلباً كعجلاتها الحديدية.

صاح: هيا! تعال!.

نزع الجد والحفيد قلنسوتيهما وانحنيا حتى كادا يلامسان الأرض. فصاح بهما الجد بصوت مدوٍّ:

ـ صباح الخير!.

وامتحن بعينيه الضفة المقابلة، وإذ رأى الطوف القاتم اللون وهو يغادر كتلة الغاب بصعوبة التفت إلى المشردين:

ـ آتيان من روسيا؟.

فحياه آرخب وأجاب:

ـ نعم أيها الروسي الكريم.

ـ أهناك مجاعة؟ هيه؟.

وقفز من العربة ولجم حصانها:

ـ إن الصراصير نفسها تموت هناك جوعاً...

ـ الصراصير؟ آه! آه! معنى ذلك أنه لم تعد توجد فتات خبز وأن الناس ازدردوا كل شيء! أنتما أيضاً تصلحان لأن تؤكلا وإن لم تصلحا للعمل! فالعامل المجد لا يحس بالمجاعة.



ـ آه! أيها السيد الكريم! إن الأرض هي السبب الحقيقي في بؤسنا. إنها تصر على ألا تنتج شيئاً رغم كل المحاولات.

هز القوزاقي رأسه قائلاً:

ـ الأرض؟ الأرض يجب أن تنتج باستمرار... وعلى هذا الأساس أعطيت للناس، لكن الذنب ليس ذنب الأرض، وإنما ذنب الأيادي التي تزرعها. فالأيادي إذا كانت خبيرة، استطاعت أن تنبت الصخور نفسها. ألم ترَ ضفة البحر الأسود الأخرى؟ في تلك البلاد، يا جدي، يحرثون الصخر.

واقترب الطوف... وبهدوء، انحنى بأقدامهما الكبيرة على أرضية «المعدية» اثنان من أشداء القوزاق حمر الوجوه... أرسيا المعدية بعنف فترنحا، ثم ربطاها إلى وتد، وتبادلا النظر، وارتاحا قليلاً.

قال صاحب العربة: «الجو حار»! وأمال قلنسوته ثم دفع العربة إلى ظهر الطوف.

فأجاب أحد النوتيين: «صحيح، الحر شديد»!، ثم وضع يديه في جيبي سرواله الغائرين، واقترب من العربة وراح يتفحصها وهو يتنفس ملء رئتيه. أما زميله فكان جالساً على الأرضية يجاهد في نزع حذائه الطويل.

اتخذ الجد ولنكا مكانيهما على ظهر الطوف، واتكآ على حافتها وراحا يتطلعان إلى القوزاق.

قال صاحب العربة آمراً: لنرحل!.

فسأله النوتي الذي كان يتفحص العربة:

ـ أعندك شيء يُشرب؟.

وفي هذه الأثناء كان النوتي الآخر الذي جاهد في نزع حذائه، قد توصل إلى ذلك فراح ينظر داخل ساق حذائه بعينين نصف مغمضتين:



ـ لا، لا شيء عندي! لِمَ السؤال؟ ألا يكفيك ماء كوبان؟.

ـ ماء! أنا لم أطلب ماء.

ـ آه! تريد عرقاً! ليس عندي.

سأل النوتي اللجوج مغتماً وبصره شاخص إلى أرضية الطواف:

ـ ولكن لماذا ليس عندي عرق؟

ـ لنرحل!.

شرع القوزاقي يلبس حذاءه ثانية. أما زميله فبصق في يديه وجذب الحبل. انضم إليه صاحب العربة يعاونه، وأقلعت المعدية.

قال لآرخب النوتي الذي طلب عرقاً:

ـ آه! قل لي إذاً! أنت أيها الجد! ألا يمكنك مساعدتنا؟

فأجاب آرخب، وهو يهز رأسه ومرآه يبعث على الحزن:

ـ ليس بي قوة!.

فقال القوزاقي الذي آلمه حذاؤه:

ـ لا داعي لمساعدتهما. إنهما يستطيعان وحدهما التخلص من أي مأزق.

وحتى يقنع الجد بصحة تأكيده، تمدد على أرضية الطواف، فرماه زميله بسيل من الشتائم ثم راح يضرب الأرض بقدميه وقد أثاره سكوت الأول.

ـ أترى يا لنكا كم هم سمان وشبعانون؟ إن هذا البلد جنة لمن يعيش على محصول الأرض.

هكذا تمتم آرخب وقد مال على لنكا، وكان هذا الأخير يتأمل من فوق الحافة جريان الماء.



كان التيار يلطم جوانب الطواف في صوت مكتوم فتنحرف عن طريقها ولا تتقدم إلا بصعوبة.

قال الجد بصوت خافت جداً:

ـ يا لهم من خنازير! يزعم أن الأيادي هي أصل البلاء، وليس الأرض! إنه يجهل أصول العمل! آه! يا رب تبسط يدك على البعض الآخر!.

وصمت برهة كأنما ينتظر من لنكا الجواب. ثم أضاف قائلاً:

ـ لكي يختبر النفوس! وإن المتمردين ليموتون دون أن يذوقوا طعم السعادة أو راحة البال.

كان لنكا يحدق في التيار دوماً فشعر بالدوار وانغلقت عيناه وقد تعبتا من حركة التيار السريعة كأنما التحمت أجفانهما كل بالآخر. وضاعف من تخدير أوصاله تمتمة جدِّه وصرير الحبل وخرير الماء الوثاب، راوده النعاس فأراد أن يتمدد لصق حافة الطواف لكنه لم يلبث أن شعر بصدمة أفقدته توازنه فسقط. فتح عينيه وحملق فيما حوله، كان القوازق يقهقهون ضاحكين، وهم يربطون المعدية إلى وتد أسود ثبت على الضفة.

ـ أنت نمت؟ أنت عديم العافية! اصعد إلى العربة، سأحملك حتى القرية. اصعد أنت أيضاً أيها الجد واجلس بجانبي.

بصوت مرتجف أخن، شكر الجد القوزاقي وصعد إلى العربة وهو يتأوه. وتسلقها لنكا بدوره ثم تحركت العربة تشق سحابة من غبار ناعم أسود أثار عند الجد سعالاً متصلاً.

راح القوازقي يغني أغنية غريبة، فقد كان يشطر الألحان كل واحدة إلى نصفين ويختمها بالصفير، وكان حيناً آخر يبتدئ لحناً وكأنه يلقي



خطبةً، ثم لا يلبث أن يتوقف فجأة ويتناول غيره بصوت جهوري مدوّ. كانت تنبعث الأصوات منه كما تحمل كرة من الصوف، فإذا ما صادقته عقبة انقطع حبل صوته فجأة. وكان ثمة انسجام عجيب بين غنائه وبين البراري الشاسعة المملة التي كان يقطع أرجاءها سراب سابح في الهواء.



ليلة الخريف

في إحدى ليالي الخريف، انتهى بي الأمر إلى أزمة لا تسر. فقد ألفيتني مفلساً بلا مأوى في مدينة وصلت إليها منذ أمد قصير ولم يكن لي فيها من المعارف أحد.

وبعد أن بعت خلال الأيام القليلة الأولى كل ما أمكنني الاستغناء عنه من ملابسي، غادرت المدينة إلى ضاحية تدعى «أستاي» حيث توجد مرافئ السفن. وهذا مكان يغلي نشاطاً أثناء موسم السياحة، لكنه كان ليلتئذٍ هادئاً خاوياً ـ فقد كنا في الأيام الأخيرة من شهر أكتوبر.

أخذت أمشي متثاقلاً على الرمال الندية، أقلب الطرف فيها عساني أعثر على بعض فضلات طعام. جائلاً بين الأبنية والأكشاك الخاوية أحدث نفسي كم يلذ امتلاء المعدة.

إن حضارتنا الراهنة قد جعلت إشباع النفس أيسر من إشباع الجسم. فعند تجوالك في الشوارع، والعمائر تحاصرك بمظهرها السار ـ وربما كنت واثقاً من أن ما بداخلها لا يسر ـ يمكنك أن تتسلى بالتفكير في هندسة البناء وعلم الصحة وغير ذلك من موضوعات عقلية هامة. لكنك تلقى مواطنيك في الطريق، يرتدون الملابس الملائمة الدافئة، فإذا بهم يتحاشونك بلباقة حتى لا يواجهون واقعة وجودك المحزنة.



وفي الحق أن ما يغدو نفس الجائع لهو أخصب مما يغدو نفس الرجل الحسن التغذية. ومن هذه الحقيقة يمكن استخراج نتيجة طريفة هي في صالح حسني التغذية!.

...كان الليل يتقدم، والمطر ينهمر، وعاصفة من الريح تهب من الشمال وهي تصفر خلال الأكشاك والدكاكين الخاوية، وتهز مصاريع نوافذ الفنادق، والنهر يرغي ويزبد تحت ضرباتها، وتتناثر أمواجه على الشاطئ الرملي، حيث كانت تندفع قممها البيضاء متوغلة في ظلمة الشاطئ، تثب واحدة في إثر الأخرى. لكأنما كان النهر يحس باقتراب الشتاء، فهو يسرع بالهرب خوف أغلال الجليد التي ربما قيدته بها ريح الشمال في تلك الليلة ذاتها. وكانت الشمس مكفهرة غائمة تنسج خيوطاً من المطر وشجرتان من الصفصاف مشوهتان عاريتان، وزورق عند جذورهما مقلوب، تزيد الطبيعة من حولي حزناً مؤسياً.

هنا زورق قاعة محطم... وهناك أشجار يرثى لها، قد عرتها الريح الباردة... كل شيء كان هالكاً، مجدباً، ميتاً، والسماء تذرف دموعاً متصلة. لم يكن حولي غير خراب كئيب. وخُيّل إليّ أنني لن ألبث أن أصبح الحي الوحيد بين هاته الأموات، وأن الموت بات يتربص بي أنا أيضاً.

كنت، في ذلك الوقت، في السابعة عشرة من عمري ـ في فورة الشباب!.

مضيت أسير على الرمل الباردة المبتلة، وأسناني تصطك إكراماً للبرد والجوع. وفجأة، وقد خطر لي أن أدور حول أحد الأكشاك أبحث عن طعام، إذا بي أبصر شبح إنسان جاثياً على ركبتيه، يلبس ثياباً نسائية مبتلة ملتصقة بكتفيه المحنيتين، ومتوارياً عن أنظارها اجتهدتُ أن أرى ماذا تفعل، كانت تحفر بيديها في الرمال بغية أن تنفذ إلى داخل ذلك الكشك.



جثوت على الأرض بالقرب منها، وسألتها: «لِمَ تفعلين هذا»!.

فصرخت صرخة ناعمة وهبّت واقفة، وما أن وقفت وحملقت بعينيها الرماديتين الممتلئتين رعباً، حتى تبينت أنها صبية في مثل سني، ذات وجه جذاب لكنه كان للأسف مصاباً بكدمات ثلاث كبيرة شوهت مظهره، رغم التناسق الملحوظ بين أوضاعها: اثنتان منها متساويتا الحجم تحت العينين، والثالثة أكبر نوعاً ما، وتقع على الجبهة فوق قصبة الأنف. وإن هذا التناسق ليبرز عمل فنان تخصص في تشويه الوجوه البشرية.

نظرت الصبية إليّ. وأخذ الخوف يتلاشى من عينيها شيئاً فشيئاً. ونفضت الرمل عن يديها، وأحكمت وضع غطاء رأسها القطني، ثم أحنت كتفيها وقالت:

ـ أظنك تريد أن تأكل أنت أيضاً! إذن، داوم على الحفر في الرمل، فقد تعبت يداي. احفر هناك، وأشارت برأسها إلى أحد الأكشاك ـ لا بد أن هناك خبزاً، فلا يزال العمل جارياً في هذا الكشك.

ورحت أحفر. وبعد أن تريثت قليلاً تتفحصني، جلست بجانبي وطفقت تساعدني.

مضينا نعمل في صمت، ولا يمكنني أن أقول الآن فيمَ كنت أفكر وقتئذٍ، في قانون العقوبات، وقواعد الأخلاق، وحقوق الملكية، إلى آخر هذه الأشياء التي يرى الرجل المثقف وجوب تذكرها في كل لحظة. ولكي أكون صادقاً بقدر الإمكان، يجب علي أن أعترف بأنني كنت منهمكاً في الحفر تحت الكشك حتى أنني نسيت كل شيء إلا ما قد يوجد داخل الكشك.

وبتقدم الليل... أخذ الظلام يتكاثف حولنا بارداً رطباً، وخفت صفير العواصف بعض الشيء. لكن المطر أخذ يشتد ويصخب وهو يقرع ألواح الكشك... وتناهت إلينا نحنحة خفير المنطقة...



سألتني الصبية خافضة الصوت: «أله أرضية أم لا»؟ لكني لم أفهم عمّا كانت تتحدث، فلم أقل شيئاً.

ـ هل للكشك أرضية، أقول لك؟ لأنه إذا كان له أرضية فعملنا ضائع في الهواء. افرض أننا حفرنا حفرة كبيرة فوجدنا ألواح خشب ثقيلة... فكيف يمكننا أن ننقلها من مكانها؟ الأحسن إذن أن نكسر القفل. إنه صغير.

نادراً ما تلهم المرأة برأي حسن. ولكن ها أنت ذا ترى أنها تلهم بذلك أحياناً. ولطالما قدرت الآراء الحسنة وحاولت الانتفاع بها ما استطعت.

اهتديت إلى مكان القفل وجذبته بشدة حتى اقتلعته. وإذ ذاك انحنت شريكتي في الجريمة، وانسلت كالأفعى إلى داخل الكشك، ومن هناك تناهى إليّ صوتها تثني علي:

ـ يا له من عمل عظيم!.

إن أبسط كلمة ثناء أنالها من امرأة، لأحلى عندي من قصيدة عصماء يمتدحني فيها رجل، ولو تهيأت له فصاحة الخطباء القدماء أجمعين. لكن تقديري للأشياء في تلك الأيام كان أقل منه الآن. لقد سألت الصبية في اقتضاب وقلق دون أن ألقي بالاً إلى ثنائها:

ـ أعندك شيء؟.

فراحت تعد لي ما عثرت عليه، بصوت رتيب:

ـ سلة مليئة بالزجاجات... زكائب فارغة... مظلة... سطل من الحديد...

وهذا كله لم يكن صالحاً للأكل. شعرت بآمالي تنهار... وفجأة صاحت تنبهني:

ـ آه! ها هو ذا!.

ـ ماذا؟!.



ـ خبز... رغيف... لكنه مبلول... خذه!.

وتدحرج رغيف إلى قدمي، وفي أثره أقبلت شريكتي الباسلة، وسرعان ما قطعت منه لقمة كبيرة حشوت بها فمي وأخذت في مضغها.

ـ أعطني قطعة! ثم يجب علينا ترك هذا المكان. إلى أين نذهب؟.

وراحت تدير رأسها محملقة في الظلمة الرطبة الصاخبة.

ـ ها هو مركب مقلوب هناك. فلنذهب إليه.

ـ هيا بنا!.

ومضينا إلى الزورق، ونحن نقطع من غنيمتنا لقماً نحشو بها أفواهنا. كان المطر يشتد صخباً، والنهر يزمجر، وصفير متصل يأتي من بعيد ـ كما لو كان ثمة مارد جسور يحقر كل نظم البشر، وما نحن الاثنين، وما هذه الليلة الخريفية الكئيبة، إلا تلامذته الصناديد. ملأ هذا الصفير قلبي ألماً ممضاً: ومع ذلك أكلت بشراهة، وكذا أكلت الصبية وكانت تسير إلى يميني.

سألتها، ولا أدري لماذا!: ـ ما اسمك؟

فأجابت، وهي تمضغ بصوت عال: ناتاشا.

نظرت إليها ملياً، فاعتصر الألم قلبي. ثم حولت نظري إلى الظلمة الممتدة أمامي، فبدا لي كأنما وجه حظي الساخر ينظر إليّ مبتسماً ابتساماً غامضاً بارداً.

راح المطر يقرع الزورق دون كلل، وطقطقته الناعمة تثير حزين الأفكار. وكانت الريح تصفر، وهي تندفع خلال ثغرة بقاع الزورق المحطم حيث كانت تتأرجح قلقة مقلقلة، فتحدث صوتاً مزعجاً مملاً. وكانت الأمواج تتسابق إلى الشاطئ، وهديرها يصخب رتيباً يائساً ـ كأنما كانت



تحكي شيئاً مملاً مقبضاً، شيئاً تعبت منه كل التعب، فهي تحاول الإفلات منه، لكن عليها مع ذلك أن تمضي في حكايته. واختلطت جلبة المطر برشاش الأمواج، وطفت فوق الزورق المقلوب تنهيدة طويلة عميقة تبعثها الأرض من فرط ما سئمت ذلك التعاقب الأبدي بين صيف دافئ مشرق وخريف بارد رطب معتم. وكانت الريح تهب على الشاطئ المهجور والنهر الثائر، وكأنها تهزج أهازيج محزنة.

لم يكن مأوانا تحت قاع الزورق مريحاً بأي حال من الأحوال: كان مقبضاً، تشيع فيه الرطوبة، ومن خلال ثغرة في القاع كانت تنفذ قطرات من المطر رفيعة باردة وعصفات من الريح.

كنا نجلس صامتين، نرتعش من البرد. وأذكر أني رغبت في النوم، أما ناتاشا فاستندت بظهرها إلى جانب الزورق وتكورت فضمت ركبتيها إلى صدرها واعتمدت ذقنها عليها، ثم راحت تحدق ناحية النهر. وعلى صفحة وجهها الشاحب بدت عيناها شديدتي الكبر، بسبب الكدمات التي تحتهما. ظلت قابعة في مكانها لا تتحرك، فأخذ جمودها وصمتها يثيران فيّ شيئاً يشبه الخوف. أردتُ أن أكلمها، لكنني لم أعرف كيف أبدأ.

بَيْدَ أنها بادرتني بالحديث قائلة في تعمد وبصوت واضح النبرة ينم عن اعتقاد راسخ: يا لهذه الحياة الملعونة!.

لم تكن تندب حظها من الحياة. فقد كان في نغمة صوتها شيء كثير من عدم اللامبالاة. وكل ما في الأمر أن هذه الصبية قد أمعنت النظر في الحياة. فانتهت إلى نتيجة محققة أعلنتها جهرة. ولما كنت لا أستطيع إنكار هذه النتيجة دون أن أتناقض مع نفسي، فقد لزمت الصمت وظلت يلفها الوجوم وكأنها لا تلاحظ وجودي.



عاودت ناتاشا الحديث قائلة: ـ لو أستطيع النعيب...؟.

وكان صوتها في هذه المرة هادئاً، ينم عن تأمل، لكنه كان أيضاً خالياً من أي أثر للشكاة. كان من الواضح أنها تأملت في الحياة، وتدبرت ظروف حياتها الخاصة فانتهى بها هذا التفكير الجدي إلى نتيجة هي: لكي تقي نفسها شر سخرية الحياة، فما عليها إلا أن «تنعب» ـ على حدِّ قولها.

أسقمني وضوح تفكيرها سقماً لا يوصف، وأدركت أنه إذا مضيت في التزام الصمت فسوف أبكي حقاً... لكن البكاء أمام هذه الصبية كان شيئاً مخزياً كل الخزي ـ خصوصاً وأنها لم تبك. صممتُ على مبادلتها الحديث، فسألتها، دون أن أفكر فيما هو أفضل من ذلك:

ـ من الذي ضربك؟

فردت بصوت بارد عميق النبرة: ـ إنه باشكا.

ـ ومن يكون؟

ـ عشيقي... خباز.

ـ أيضربك كثيراً؟.

ـ كلما سكر ضربني.

وازدادت مني دنواً. وراحت تحدثني عن نفسها وعن باشكا وما بينهما من علاقات. قال لي: إنها من بنات الشوارع، وحبيبها الخباز الشارب يجيد العزف على «الهارمونيكا». وأنه زار البيت الذي تعمل فيه، فأحبته لأنه كان مرحاً أنيقاً. كان يرتدي معطفاً ثميناً ويلبس حذاءً مدفراً. هذه هي الأسباب التي أوقعتها في حبه فأصبح معبودها. ولما وثق من حبها، شرع يبتز منها النقود التي كان بعض الزوار ينقدونها إياها لتشتري حلوى، ثم يسكر بهذه النقود، ويضربها. والأسوأ من ذلك أنه راح يلهو مع فتيات أخريات أمام بصرها.



ـ ألا يجرح هذا إحساسي؟ ليست تلك الفتيات بأجمل مني. إنه يخدعني خداعاً خالصاً صريحاً... ذلك النذل! وأول من أمس استأذنت من سيدتي في نزهة قصيرة، وذهبت إلى مكانه المفضل، فوجدته وأنكا تجالسه سكرانة، وهو أيضاً كان في شدة السكر. قلت له: «أنت نذل، أنت... لص»!. فضربني «علقة ملآنة»: ركلني بقدمه وجذبني من شعري وما إلى ذلك. وقد كنتُ ناوية ألا أهتم بذلك لولا أنه مزق ملابسي. ماذا أفعل الآن؟ كيف أظهر أمام سيدتي؟ لقد مزق كل شيء... ثوبي ومعطفي أيضاً ـ وكان جديداً، ونزع المنديل عن رأسي ومزقه... رباه! ماذا تخبئ لي؟!.

وانفجرت تنوح في صوت مكروب خافت... وكانت الرياح تولول وتشتد برودتها وحدتها... وعادت تطقطق أسناني، وهي أيضاً كانت تنتفض من البرد. أخذت تدنو مني حتى أصبحت أرى بريق عينيها في الظلام.

ـ ما أحطكم أيها الرجال! بودي لو أدوسكم بالنعال! بودي لو أشوه وجوهكم ثم أبصق عليها بلا أدنى شفقة. أنتم سفلة... أنتم منحطون! إنكم تتمسكنون وتهزون أذيالكم كالكلاب القذرة حتى إذا بلغ بنا الجنون أن استسلمنا لكم، انتهى كل شيء وأصبحتم لا تعرفوننا. إنكم تستحقوننا بأقدامكم ثم تهجروننا... يا لكم من رعاع سفلة.

كانت تصب لعناتها بغزارة. لكنها لم تكن منفعلة أثناء ذلك. ولم تظهر أي حقد أو كره نحو هؤلاء «الرعاع السفلة» إلى آخر ما نعتتهم به. كان هناك تنافر بين نغمة حديثها ومضمونه. فقد كانت تتحدث بهدوء دون أن تتغير نبرة صوتها. بَيْدَ أنها أثرت فيَّ تأثيراً أشد مما تحدثه أكثر الكتب والأقوال التشاؤمية بلاغة وإقناعاً، والتي عنها قرأت وسمعت الشيء الكثير. وما هذا ـ كما تعلم ـ إلا لأن الاحتضار الحقيقي يبدو دائماً شيئاً طبيعياً أعمق تأثيراً من أدق وأبلغ وصف لساعة الموت.



أحسست بتعاستي تتضاعف ـ لا شك أن العلة في ذلك كانت هي البرد أكثر مما كانت كلمات جارتي، فقد رحت أئن بصوت خافت وأسناني تصطك.

في هذه اللحظة تقريباً، شعرت بيدين صغيرتين باردتين تلتفان حولي ـ إحداهما لامست عنقي، والأخرى استقرت على خدي، وفي الوقت نفسه، سمعت صوتاً فيه جزع وحنان يسأل:

ماذا بك؟

لقد كدت أعتقد أن شخصاً آخر هو الذي سألني هذا السؤال، وليس ناتاشا التي جاهرت، منذ لحظات، بأن جميع الرجال أوغاد، وودت أنْ لو تراهم أبيدوا عن آخرهم. لكنها طفقت تقول في لهفة:

ـ ما بك؟ قل البرد شديد عليك؟ أطرافك تتجمد؟ أوه! يا لك من رجل شاذ غريب! إنك تجلس صامتاً كالبومة! كان عليك أن تقول لي: إن البرد شديد عليك... تعال... نم هنا... تمدد. وأنا أيضاً سأنام... هنا! والآن طوقني بذراعيك، بشدة...! حسناً. أما الآن فتستدفئ... فسوف ننام ظهراً لظهر... ليلة وتمر. لكن، قل لي... أسكرت قبل أن تأتي إلى هنا؟... أو يكونون قد سبوك في الطريق؟... ما عليك!.

كانت تحاول أن تشعرني بالراحة... كانت تحيي عزيمتي.

لعنة الله عليّ ثلاثاً... أي سخرية تلك التي كانت مني! تدبر الأمر معي، كنتُ مشغولاً، وقتئذٍ، بالتفكير في مصير النوع الإنساني، أحلم بإعادة تنظيم النظم الاجتماعية والمذاهب السياسية ـ وألتمس كل السبل لقراءة تلك الكتب الجهنمية التي لم يستطع أن يسبر أغوارها مؤلفوها أنفسهم ـ في تلك الأيام كنت أحاول أن أجعل من نفسي قوة فعالة خطيرة، ثم إذا بي



أجد عاهرة تدفئني بجسدها... مخلوقة بائسة، مشوهة، يطاردها الرجال، ولا قيمة لها أو مكان في الحياة، وما كنت أفكر في مساعدتها لو لم تبدأ هي بمساعدتي. ولو أنه خطرت لي فكرة مساعدتها لما استطعت ذلك إلا بشق النفس. آه... كدتُ أصدق أن هذا كله كان يحدث لي في حلم... حلم سخيف مزعج... لكن، لا. كان يستحيل عليّ تصديق ذلك، فإن قطرات المطر الباردة كانت تتساقط عليّ، وصدر امرأة يلاصق صدري، أحسست بأنفاسها الدافئة تلفح وجهي، أنفاس فيها من رائحة الفودكا، لكنها مع ذلك منعشة جداً، كانت الريح تولول وتزمجر، وقطرات المطر تقرع جوانب الزورق، والأمواج تهدر. وكلانا يلتصق بصاحبه بشدة، ورغم ذلك نرتجف من البرد. هذا كله واقع لا شك فيه، لكني على ثقة من أن أحداً لم يشهد قط حلماً مزعجاً بشعاً كهذا الواقع.

مضت ناتاشا تحدثني برقة وعطف لا تستطيعها إلا المرأة وحدها.

وتحت تأثير كلماتها الساذجة الحلوة، أخذت تشتعل فيّ نار لطيفة فأحس بشيء ينصهر في قلبي.

ثم انهمرت دموعي، تطهر قلبي مما علق به من آثام كبيرة سخيفة، ومما شابه من حزن ودنس تراكما عليه قبل تلك الليلة.

واستني ناتاشا بقولها:

- كفى يا حبيبي. لا تبكِ. كفى. ستتحسن أحوالك بعون الله... وستعثر على مأوى آخر...

وطفقت تقبّلني... منحتني ما لا حصر له من القُبل الحارة... وكانت هذه أول مرة تهبني الحياة قُبلات المرأة... كانت أحلى القبلات، فإن كل ما جاء منها بعد ذلك كلفني كثيراً بينما لم أجنِ منه شيئاً.



ـ أنت، أيها المخلوق الشاذ الغريب، هدئ نفسك وكفّ عن البكاء. غداً أساعدك إن لم تجد مكاناً تذهب إليه.

هكذا راح همسها الحلو يتناهى إليّ بنغمته المقنعة... كأني في حلم.

... وحتى مطلع الفجر، رقدنا متحاضنين.

وأشرق الصباح، فزحفنا من تحت الزورق، وأخذنا طريقنا إلى المدينة... وهناك ودع كلٌّ منا الآخر وداعاً حاراً، ولم نلتق ثانية أبداً. مع أني ظللت نصف عام أبحث في كل بؤر الفساد عن ناتاشا اللطيفة. هذه التي قضيت معها تلك الليلة الخريفية.

فإذا كانت قد ماتت ـ وفي هذا صالحها ـ فليرحمها الله، ولترقد في سلام. وإن كانت لما تزل حية ترزق... فسلام على روحها. إنني أرجو ألا يتيقظ فيها الوعي بسقطتها... فهذا يؤلمها ألماً لا داعي له، ألماً لن يرقى بحياتها...




Arab_Books

المهرج

أستأذن المؤلف في أن أهدي هذه الترجمة إلى أولئك الأبطال المجهولين الذين يدفعون للآلة دماءهم وأعصابهم، حتى يصير المخطوط مطبوعاً.

ـ 1 ـ

في أرجاء قاعة تحرير جريدة ن... تلك القاعة الرحبة المضيئة، انطلق رئيس التحرير منزعجاً حانقاً، وهو «يدغدغ» العدد الأخير من الجريدة ويطلق السباب عالياً متقطعاً. وكان رجلاً ضئيل الحجم، ذا وجه نحيف بارز التقاطيع تزينه نظارة ذهبية ولحية صغيرة. وكان يضرب الأرض بقدميه بشدة. وهو يدور بساقيه النحيفتين وسرواله الرمادي حول مائدة طويلة وضعت في وسط القاعة وتكدست فوقها الجرائد و«البروفات» والمخطوطات. وقرب هذه المائدة كان يقف مدير تحرير الجريدة وقد استند إلى المائدة بإحدى يديه وبالأخرى راح يدعك جبهته: وكان رجلاً أشقر طويل القامة، قوي البنية، لم تفارق الابتسامة وجهه الممتلئ، وهو يرقب بعينيه المرحتين الرماديتين رئيس التحرير. وكان مرتب الصفحات، وهو رجل أصفر الوجه، محطم الصدر، يرتدي سترة قذرة كالحة لا يتناسب



طولها مع قامته، كان يلتصق بالحائط في خوف، عندما حملق في السقف كأنما يحاول أن يتذكر شيئاً أو يفكر في شيء، لكنه لم يلبث أن شهق في اكتئاب وأحنى رأسه. وعند باب القاعة كان يقف «الساعي» كالتمثال. ولم تكن تمر دقيقة دون أن يدخل إلى القاعة أو يخرج منها أشخاص يبدو عليهم القلق والتحفز. بينما كان صوت رئيس التحرير يدوّي في أرجاء القاعة قوياً ثائراً فيكشر لسماعه مدير التحرير ويرتجف مرتب الصفحات من فرط رعبه.

ـ يا لها من جرأة! سأرفع دعوى أمام محكمة الجنايات ضد هذا الوغد... هل حضر المصحح؟... مروا جميع مرتبي الحروف بالاجتماع هنا! بسرعة! فلن يمضي وقت طويل حتى تهاجمنا الجرائد... إن هذه الفضيحة سوف تنتشر في جميع أنحاء روسيا!... ولن أسكت عن ذلك. لا بدّ أن أُنزل العقاب الصارم بذلك النذل الذي ارتكبها!.

ورفع رئيس التحرير ذراعيه وبسط الجريدة، وظل برهة متحجراً في هذا الوضع كأنما أراد أن يغلف رأسه بالجريدة اتقاء الفضيحة المرتقبة وهنا أشار عليه مدير التحرير بقوله:

ـ هلا بحثت عن ذلك الجريء...؟

فقال رئيس التحرير وعيناه تلتمعان غضباً:

ـ طبعاً! سأعرفه! سأعرفه!.

واستأنف تجواله في أرجاء القاعة، وراح «يدغدغ» الجريدة فوق صدره بعنف.

ـ سأعرفه وأكسر رقبته!... والآن أين المصحح؟...

آها... ها هم... تفضلوا بالدخول يا حضرات السادة!... يا قواد الحروف المطبعية! ها... ها! ادخلوا! ماذا تنتظرون؟.



دخل مرتبو الحروف القاعة واحداً بعد الآخر، وكانوا يقدرون سبب استدعائهم، كما كان كل منهم يتوقع أن توجه إليه التهمة ـ ولذا كانت وجوههم الملطخة بذرات الرصاص تبدو جامدة كالخشب.

تجمعوا في أحد أركان القاعة، وكل منهم يلتصق بالآخر. بينما وقف رئيس التحرير قبالتهم، وقد عقد يديه ـ والجريدة بينهما ـ خلف ظهره، ولما كان أقصر منهم قامة، فقد كان عليه أن يرفع رأسه حتى يستطيع أن ينظر إليهم. وقد أتى هذه الحركة بسرعة حتى اصطدمت نظارته بجبهته فظن أنها قد سقطت على الأرض ومد ذراعيه في الهواء، في حين استقرت نظارته على أنفه. فقال وهو يصر على أسنانه:

ـ ليأخذكم الشيطان...؟

وهنا ومضت ابتسامة الفرح على وجوه مرتبي الحروف... تلك الوجوه الملطخة بذرات الرصاص، وضحك أحدهم ضحكة مكتومة. فصرخ رئيس التحرير وقد تملكه الغيظ والاصفرار:

ـ إنني لم أجمعكم هنا لكي تضحكوا! يكفي أنكم جلبتم فضيحة للجريدة. إن كان بينكم رجل شريف، رجل يدرك ما هي الجريدة وما هي الصحافة فليدلني على من ارتكب هذا العمل...

وبحركات عصبية راح رئيس التحرير يبسط الجريدة. بينما دوّى صوت أحدهم يقول في تعجب: «ما الموضوع»؟.

ـ آه! ألا تعلمون؟ حسناً: ها هو... «تهاجم الصحافة قانون المصانع الخاص بنا... وهذه الصحافة ليست غير مهاترات وثرثرة ولا تؤدي إلى نتيجة...». هذا هو الموضوع! فهل أنتم راضون عن ذلك؟ أيرضى عنه من كتب كلمة «مهاترات» بنوع خاص؟ يا لهذا الأسلوب الرفيع الذي كتبت به



هذه العبارة!... من منكم كاتب هذه الكلمات: «مهاترات وثرثرة لا تؤدي إلى نتيجة...»؟.

فانبعث الصوت الهادئ نفسه الذي سأل رئيس التحرير منذ قليل:

ـ ولكن من هو كاتب المقال؟ أنت؟ إذاً فأنت الذي كتبت هذا الكلام الفارغ.

وعند هذه العبارة الوقحة، ظن الجميع أن المذنب كشف عن شخصيته وخطا مدير التحرير بضع خطوات حتى صار أقرب إلى حلقة العمال، بينما وقف رئيس التحرير على أطراف أصابعه ابتغاء التعرف على قائل هذه العبارة، ولكنه لم يوفق، وكان يقف أمام رئيس التحرير رجل قوي البنية، مشوه الوجه بآثار الجدري، يرتدي قميصاً أزرق وتتدلى خصلات من شعره على صدغه الأيسر. وكان يضع يديه في جيبي سرواله، ويثبت على رئيس التحرير نظرات عينيه الرماديتين... نظرات كلها استخفاف وحقد. كما كان يبتسم، ولكن الابتسام يضيع في ثنايا لحيته الكثيفة الشقراء، فراح مدير التحرير ينظر إليه وقد قطب جبينه في صرامة، وأما رئيس التحرير فحملق فيه مذهولاً. وأما مرتب الصفحات فكان يرمقه ويغالب الضحك بينما عبرت ملامح مرتبي الحروف عن شعور بالرضا خفي، وعن الخوف والفضول... وأخيراً سأل رئيس التحرير، وهو يشير بإصبعه إلى مرتب الحروف المشوه الوجه:

ـ إذاً فهو أنت؟.

ثم لوى شفتيه متوعداً. فابتسم مرتب الحروف ابتسامة ساذجة جارحة وأجاب:

ـ نعم، أنا...

ـ تشرفنا! إذاً فهو أنت؟ أتسمح بأن تقول لي لمَ أقدمت على ذلك؟.



ـ ولكن من قال إنني فاعلها؟.

ونظر مرتب الحروف إلى رفاقه، فقال مرتب الصفحات، موجهاً كلامه إلى رئيس التحرير:

ـ لا أحد غيره، يا ديمتري بافلوفيتش.

فقال مرتب الحروف في سذاجة:

ـ حسناً لنسلم بأنني فاعلها...

وأتى بحركة من يده تنم عن عدم الاكتراث، ثم ابتسم.

وران الصمت على الجميع من جديد. فإن أحداً لم يعوّل على هذا الإقرار السريع الساذج الذي كان بمثابة مفاجأة للجميع. حتى إن «الساعي» تملكه الذهول لخطيئته. واتسع الفراغ من حول الرجل المشوه الوجه: فقد تراجع مرتب الصفحات إلى المائدة بينما ابتعد مرتبو الحروف... وسأل مدير التحرير، وهو يبتسم ويحملق في الرجل المشوه الوجه:

ـ فعلتها عن قصد وبسبق الإصرار... أليس كذلك؟

فصاح رئيس التحرير، وهو يلوح بالجريدة في عنف:

ـ أجب!...

لا تصح... أتظن أنك تخيفني بصياحك؟ كثيرون صاحوا بي... دون أن تهتز مني شعرة! ـ وهنا التمعت عينا مرتب الحروف استخفافاً، ثم نقل قدميه واستطرد موجهاً كلامه إلى رئيس التحرير ـ والواقع... أنني دسست هذه الكلمات مع سبق الإصرار.

فقال رئيس التحرير للجمع المحتشد:

ـ أسامعون ما يقول؟



أما مدير التحرير فقد استشاط غضباً وقال:

ـ يا لك من شيطان رجيم؟ أتدرك مدى الأذى الذي نلتني به؟.

ـ لا! أنت لم يصبك أي أذى. بل بالعكس، لقد أدت «فعلتي» إلى مضاعفة المباع من الجريدة. أما عن السيد رئيس التحرير، فالواقع أن مسألة بسيطة كهذه. لا ينبغي أن تثير اهتمامه.

وهنا استبد الغيظ برئيس التحرير حتى تحجر جسده وظل واقفاً أمام ذلك الرجل الذي يظهر الهدوء بينما يضمر الشر، ولم يستطع أن ينفس عن غضبه بالكلام، فالتمعت عيناه وتطاير منهما الشرر. وهنا قال مدير التحرير في صوت رصين متوعد:

ـ ستدفع الثمن غالياً يا حبيبي!.

وضرب ركبتيه بيده، ولم يلبث أن خفت حدة غضبه. لقد كان في قرارة نفسه راضياً عما حدث وعن إصرار العامل: فقد كان رئيس التحرير يستعلي عليه دائماً ويفحمه بتفوقه العقلي، ولكن ها هو يرى غريمه المغرور والوقح وقد هبط من عليائه. على يد أحد عماله! ولكنه استطرد قائلاً:

ـ سنؤدبك جزاء هذه الفعلة يا حبيبي!.

فقال مرتب الحروف:

ـ بطبيعة الحال. وهل المسألة هينة؟

كان للهجته وأقواله وقع عظيم في نفوس سامعيه: تبادل مرتبو الحروف النظرات بينما انكمش مرتب الصفحات وبدت على وجهه علامات الدهشة البالغة. أما رئيس التحرير فتقهقر إلى المائدة واعتمد عليها بيديه، وبصره شاخص إلى غريمه. إن رئيس التحرير لا يستشعر الهياج قدر ما يستشعر الحيرة والإهانة. أما مدير التحرير فسأل العامل:

ـ ما اسمك؟



وأخرج مفكرة من جيبه. وهنا أسرع مرتب الصفحات قائلاً:

ـ اسمه نيكولاي جوزدف، يا فاسيلي إيفانوفيتش.

فقال مرتب الحروف بصوت أجش، وهو ينظر إلى مرتب الصفحات:

ـ اخرس يا خائن! هل سألك أحد حتى تجيب؟ أنا لي لسان... وأستطيع أن أجيب... اسمي نيكولاي سيمونوفتش جوزدف. ومحل إقامتي...

فتوعده مدير التحرير بقوله:

ـ سترى فيما بعد! أما الآن فاذهب إلى الشيطان! اذهبوا كلكم!.

فخرج مرتبو الحروف، وهم يجرون أقدامهم في صخب. وكان آخرهم جوزدف. لكن رئيس التحرير استوقفه قائلاً في صوت خافت واضح النبرات:

ـ انتظر!...

فاستدار إليه جوزدف، وبحركة بطيئة استند إلى قائمة الباب، ثم راح يمر بيده على لحيته وقد ثبت على رئيس التحرير نظرات التحدي. فاستأنف هذا الأخير حديثه قائلاً:

ـ أريد أن أقول لك...

وأراد أن يحتفظ بهدوئه لكنه لم يستطع فارتفع صوته حتى قارب الصياح:

لقد اعترفت بأنك... ارتكبت هذه الفضيحة... تعريضاً بشخصي. أليس كذلك؟ فلماذا أردت أن تعرض بي؟ أهو الانتقام مني؟ وعلام الانتقام؟... تكلم! هيا أجب!.

فهز جوزدف كتفيه، ولوى شفتيه ثم أحنى رأسه ولاذ بالصمت. فنفد صبر مدير التحرير وضرب الأرض بقدمه مما جعل مرتب الصفحات يرتعد،



أما رئيس التحرير فعض على شفته وراح «يطرقع» أصابعه في انفعال. لقد كان الجميع ينتظرون مرتب الصفحات أن يتكلم.

ـ حسناً، سأقول كل شيء... ولكن اعذرني إذا أنت لم تفهم كلامي... فأنا رجل غير متعلم! الموضوع: إنك تكتب مقالات من كل نوع... وتحث الناس على أن يحبوا بعضهم بعضاً، وما إلى ذلك... اعذرني فأنا لا أستطيع أن أتحدث عن مقالاتك... فأنا شخص غير مثقف. ولكنك تعلم طبعاً الموضوعات التي تكتب فيها باستمرار... وأنا أقرأ مقالاتك، ثم إنك تتعرض لنا، نحن العمال... إنني أقرأ ما تكتبه عنا... فأشمئز، لأن ما تكتبه ليس سوى «تهريج»... مجرد وقاحة يا ديمتري بافلوفيتش! إنك تعظ في الجريدة قائلاً: «لا تنهب»! فهل لا تدري شيئاً عما يدور في مطبعتك؟! لقد اشتغل كرياكوف في الأسبوع الماضي ثلاثة أيام ونصف بدون انقطاع... وهذا كله مقابل مائتين وأربعين كوبيكاً ما أن تسلمها حتى سقط فريسة المرض. ولما أتت امرأته إلى المكتب تسأل المساعدة، قال لها المدير: إنه لا حقَّ لها في طلب أية إعانة فإن عليها أن تدفع غرامة قدرها واحداً وعشرين روبلاً. فإذا كنت تكتب في الجرائد: «لا تنهب»!، فلماذا لا تكتب عن السلب والنهب الذي يحدث في مطبعتك؟ وعن مساوئ المدير التي جاوزت كل حدّ؟... لا، إنك لا تستطيع أن تكتب عن ذلك، لأنك أنت نفسك، لك ضلع في هذه السياسة... هذه هي المسألة... ولذا فأنت تغمض عينيك عن الفظائع التي ترتكب تحت بصرك، بينما تبدع حين تكتب عن الفظائع التركية. أفليست مقالاتك مجرد سخافات؟ لطالما نازعتني نفسي أن أدس في مقالاتك شيئاً صادقاً. ولكن، كان أولى بي أن أحور مقالتك خيراً مما فعلت!.

وانتشى جوزدف بإحساس البطولة فأبرز صدره وشمخ برأسه عالياً، وأخذ ينظر إلى رئيس التحرير في عينيه، مزهواً بانتصاره. أما رئيس التحرير



فانكمش لصق المائدة، بينما كانت يداه المتصلبتان تمسكان حافتها، ثم تراجع قليلاً ووجهه يصفر تارة ويحمر أخرى. وهو يبتسم دوماً ابتسامة تدل على الاحتقار والارتباك، وعلى سوء النية والكمد:

ـ يبدو أنه باحث اجتماعي!.

هكذا قال مدير التحرير في رعب وفضول، موجهاً قوله إلى رئيس التحرير. فابتسم هذا الأخير ابتسامة شاحبة دون أن ينبس بحرف، ثم أمال رأسه إلى أحد كتفيه.

وتقهقر مرتب الصفحات إلى النافذة حيث كان يستقر أصيص به نباتات كانت تلقى على أرضية الغرفة ظلالاً سوداء، ومن وراء الأصيص طفق مرتب الصفحات يرقب الحاضرين بعينيه الضيقتين السوداوين الشبيهتين بعيني الفأر... عينان تعبّران عن نوع من الترقب الشديد وتلتمعان فرحاً لحظة بعد أخرى. وكان مدير التحرير ينظر إلى رئيس التحرير فلما أحس هذا الأخير بنظراته، رفع رأسه والتمع القلق في عينيه واختلجت قسمات وجهه وهو يصيح بجوزدف ـ وكان هذا الأخير قد تهيأ للخروج:

ـ لا، انتظر، لقد أسأت إليّ دون وجه حق... فأرجو أن تكون واعياً بذلك؟ على أنني أشكر لك... صدق أقوالك، وإن كنت أكرر لك...

لقد أراد أن يتهكم عليه، لكنه لم يستطع أن يمعن في ذلك فصمت برهة ريثما يعد دفاعاً يليق بشخصه ويمكن أن يقنع هذا القاضي الذي ما كان يتوقع قط أن يحاكمه، وهو رئيس التحرير. أما جوزدف فهز رأسه قائلاً:

ـ مفهوم! مفهوم!.

وتلفت حواليه ووجهه ينطق بشدة رغبته في مغادرة القاعة، لكن رئيس التحرير استوقفه قائلاً بصوت عال:



ـ لا، انتظر! لقد ألصقت بي تهمة، وعاقبتني ظلماً ـ وقبل توجيه الاتهام ـ على خطأ تدّعي أنني ارتكبته في حقك... ولكني أملك الحق في الدفاع عن نفسي، فأرجو أن تستمع إلي.

ـ وعلامَ تعبأ بي إلى هذه الدرجة؟ أولى بك أن تدافع عن نفسك أمام مدير التحرير، إن رأيت ما يدعو إلى ذلك ـ أما إن كنتَ قد أسأت إليك، فأولى بك أن ترفع الأمر إلى القضاء لا أن تدافع عن نفسك أمامي! وداعاً يا سيدي!.

واستدار وخرج من القاعة، وقد عقد يديه خلف ظهره.

كان يلبس حذاء طويلاً ذا كعب كبير، ويمشي متثاقلاً بينما وقع أقدامه يدوي في أرجاء قاعة التحرير التي كانت تبدو أشبه شيء بمخزن الغلال، وما أن أغلق الباب وراءه حتى صاح مدير التحرير قائلاً:

ـ أما إنه لحادث عجيب!...

وهنا بسط مرتب الصفحات ذراعيه، وقال:

ـ يا فاسيلي إيفانوفيتش! إنني بريء من التآمر مع جوزدف. ثم اقترب من رئيس التحرير في خطوات قصيرة متأنية:

ـ لقد رتبتُ صفحات مقالتك... ولكن لم يكن بوسعي ـ بحال من الأحوال ـ أن أفطن إلى التحوير الذي أدخله عليها مرتب الحروف. فأنا يا سيدي أسهر طوال الليل واقفاً على قدمي... تاركاً بالبيت زوجة مريضة وأطفالاً ثلاثة لا يجدون من يرعاهم. إنني أدفع دم قلبي في مقابل الثلاثين روبلاً التي أتقاضاها كل شهر. ثم إنني قد حذرت فيدور يافلوفيتش بعد أن ألحق جوزدف بالمطبعة، وقلت له: يا فيدور يافلوفيتش، إنني أعرف جوزدف منذ أن كان صبياً، ولذا أرى من واجبي أن أقول لك إنه مهرج كبير



ولص ـ إنه رجل غير شريف. فقد سبق أن صدرت ضده عدة أحكام، بل ودخل السجن أيضاً.

وهنا سأل رئيس التحرير في شرود، ودون أن ينظر إلى مرتب الصفحات:

ـ ولِمَ سُجن؟.

ـ من أجل الحمام... ليس من أجل الحمام بالذات... وإنما لأنه كسر ذات ليلة أقفال سبعة أبراج حمام. وأطلق سراح كل الطيور! وقد كان لي، أنا أيضاً، زوج من الحمام رمادي جميل، لكني فقدته بهذه الطريقة. كان زوجاً غالي الثمن.

فسأل مدير التحرير في نوع من الفضول:

ـ ولكم ألم يسرق؟.

ـ لا. إنه ليس من هذا النوع، وإن كان حوكم مرة بتهمة السرقة ثم برئ. إنه مجرد مهرج... لقد لذ له أن يطلق سراح الطيور، بل أن يسخر منا، نحن هواة الطيور. وقد ضرب من أجل ذلك أكثر من مرة، وفي إحدى المرات تلقى ضرباً مبرحاً اضطره إلى دخول المستشفى... وما أن خرج منها حتى جلب العفاريت في المدخنة القائمة ببيت إشبينتي.

وهنا سأله مدير التحرير في دهشة بالغة:

ـ العفاريت؟.

في حين هز رئيس التحرير كتفيه وقال:

ـ ما هذا الكلام الفارغ؟.

ثم قطب جبينه واستغرق في التفكير، وهو يعض على شفتيه. فقال مرتب الصفحات في ارتباك:



ـ بل هذه هي الحقيقة. وسأشرح الأمر لكم: إن جوزدف هذا خبير بتركيب المداخن، كما أنه يعرف كل شيء: الطباعة على الحجر، والحفر، وسبق له أن عمل بمصلحة المجاري. ولذا استخدمته إشبينتي ـ وهي من خدم الكنيسة ـ لكي يبني لها مدخنة، فقام بالمهمة خير قيام، ولكن النذل ثبت داخل المدخنة زجاجة بها زئبق وإبر، وأشياء أخرى. فكانت تصدر من المدخنة أصوات تشبه الأنين والتنهد. مما جعل الناس يعتقدون بوجود عفاريت في المنزل. بينما حقيقة الأمر أن الزئبق كان يغلي في الزجاجة عندما تسخن المدخنة فيصدر عنها أزيز قوي، بينما تتخبط الإبر داخل الزجاجة فكأن هناك من يصر على أسنانه. هذا إلى أنه وضع في الزئبق ـ إلى جانب الإبر ـ كثيراً من الحدائد القديمة، فكانت تصدر هي الأخرى أصواتاً مختلفة: فالإبرة لها صوت، والمفتاح له صوت، وهكذا يتكون من هذه الأصوات موسيقى شيطانية. حتى إن إشبينتي أرادت أن تبيع المنزل، لكن أحداً لم يتقدم لشرائه ـ ومن ذا الذي يشتري منزلاً تسكنه العفاريت؟ ومع أنها أقامت فيه الصلوات ورشت أنحاءه ماءً مُصلًّى عليه، إلا أن هذا لم يأت بفائدة. حتى وصل الحال بالمرأة المسكينة إلى البكاء باستمرار. وكانت لها ابنة على وشك الزواج، كما كانت تمتلك حوالي مائة دجاجة وبقرتين وأثاثاً لا بأس به. ثم إذا بها تبتلى فجأة بالعفاريت! مسكينة! كان منظرها وقتذاك يثير الرثاء. لكن جوزدف نفسه أنقذها آخر الأمر. فقد طلب إليها خمسين روبلاً لكي يطرد العفاريت! فأعطته في بادئ الأمر خمسة وعشرين روبلاً، فلما أخرج الزجاجة وانكشف السر ـ أرادت المرأة أن تتقدم بشكوى إلى النيابة، ولكن بعضهم نصحها بألا تفعل ذلك. هذه واحدة من ألاعيبه الكثيرة.

فصاح رئيس التحرير في انفعال:

ـ وغداً أرى نتيجة خدعته الأخيرة التي حبكها حولي!.



وانتزع نفسه من كرسيه وراح يذرع القاعة بخطواته ـ آه! أما إن هذا لسخف ووقاحة ودناءة.

فقال مدير التحرير بلهجة هادئة:

ـ ولكن ألا ترى معي أن ألاعيبه مسلية؟ لقد جلب العفاريت في المدخنة! ها، ها! عليه اللعنة، أما أن نعاقبه على فعلته الأخيرة، فذلك شيء نستطيعه ـ لكنه وغد ذكي. كما أنه مهرج!.

و«طرقع» مدير التحرير أصابعه، ورفع بصره إلى السقف. فصاح به رئيس التحرير في لهجة جافة:

ـ أيسليك تهريجه؟.

فقال مدير التحرير في حدة مماثلة:

ـ ماذا؟ أليس هذا مسلياً؟ ألا ترى الأوصاف التي تفتق ذهنه عنها، والتي رماك بها؟ أما إنه لنذل ذكي! أية مادة من قانون العقوبات ستستند إليها لتصفية حسابك مع هذا الرجل؟.

فهرول رئيس التحرير حتى دنا من مدير التحرير، وقال:

ـ لا يا سيدي! لن أصفي حسابي معه. إنني لا أستطيع ذلك يا فاسيلي إيفانوفيتش، ما دام صانع العفاريت على حق فيما فعل! إنه صاحب الأمر في مطبعتك! أما نحن!. أما أنا فأقوم بدور المغفل، والفضل في ذلك يرجع إليك. إنه على ألف حق!.

فسأله مدير التحرير بلهجة حادة:

ـ أتراه على حق أيضاً في قيامه بتحرير مقالتك؟.

ولوى شفتيه علامة السخرية.



ـ أجل: ينبغي أن تفهم يا فاسيلي إيفانوفيتش أن جريدتنا تقدمية.

ـ وتصدر ألفي نسخة، بينما جريدة الخصوم تصدر تسعة آلاف!.

ـ بالضبط! أتريد أن تقول شيئاً آخر؟.

ـ لا.

ثم أتى رئيس التحرير بحركة من يده تنم عن اليأس، واستأنف تجواله في أنحاء القاعة كابي العينين، ثم دمدم وقد أحنى كتفيه:

ـ موقف نحسد عليه! مأزق وقعنا فيه! الكل يهاجم واحداً! بينما هذا الواحد مكبل بالأغلال! ها... ها! آه من هذا العامل الشقي؟!.

وهنا قال له فاسيلي إيفانوفيتش، وكأنما مل القصة من أولها إلى آخرها:

ـ هون على نفسك... لا تعكر مزاجك. سينتهي الأمر بسلام وتسترد مكانتك. بل هذا حادث يبعث على الضحك أكثر مما يبعث على التألم.

وانحنى ومد يده الضخمة وتوجه إلى المكتب. وهنا انفتح الباب فجأة وظهر جوزدف على العتبة، وكان يلبس قبعته، ويبتسم ابتسامة رقيقة:

سيدي رئيس التحرير: حضرت لأقول لك إنه إذا أردت أن ترفع ضدي قضية، فأخبرني بذلك ـ لأنني ذاهب من هنا ومستقيل ـ وبيدي لا بيد غيري!.

فزمجر رئيس التحرير، وهو يلهث من فرط الحنق:

ـ هيا، اذهب من هنا!.

واندفع إلى أقصى القاعة. فقال جوزدف:

ـ إذاً، فليس على أحد منا للآخر شيئاً.



وأحكم وضع قبعته واستدار إلى الباب في هدوء ثم توارى عن الأنظار فتمتم فاسيلي إيفانوفيتش، وقد تهللت أساريره:

ـ أما إنه لوغد!.

وشرع يرتدي معطفه على مهل، والابتسامة الهادئة لا تفارق شفتيه.

ـ 2 ـ

بعد هذا الحادث بيومين، كان جوزدف يتمشى على سفح أحد التلال وقد ارتدى قميصاً أزرق يحيط به عند الخصر حزام من الجلد، وسروالاً يتصل بحذاء لامع متوسط الطول، وقبعته البيضاء تلامس أذنيه وتصل حتى قفاه، ويحمل في يده عصاً.

كان سفح التل ينحدر حتى شاطئ أحد الأنهار، وقديماً كانت تمتد على هذا الشاطئ غابة كثيفة، أما اليوم فتمتد مكانها أرض قاحلة إلا من بضعة أشجار سنديان وزان، تناثرت هنا وهناك، وقد انقصفت بعض أغصانها وانبسط البعض الآخر طويلاً ضخماً. وكانت تلتف حول جذورها نباتات طفيلية، ويلاصق جذوعها أدغال مبعثرة. وكان الناس قد مهدوا أثناء اختراقهم هذه البقعة طريقاً ضيقاً متعرجاً يزحف حتى شاطئ النهر المتلألئ في ضوء الشمس. كما كان يخترق سفح التل ممشى أفقي يتخذه الناس متنزهاً يروحون فيه ويجيئون.

وكان يحلو لجوزدف أن يتنزه في هذا الممشى، فيروح مع الجمهور ويجيء، ويحس بإحساسه ويشاطره تنسم الهواء المعبق بشذى الأشجار، ويرسل نفسه على سجيتها ويشعر بأنه ضئيل أمام عظمة الكون... لكنه يتساوى في إنسانيته مع الجميع.

وكان يتمشى يوم ذاك منشرح الصدر، ووجهه المشوه الذي تنطق



قسماته بالجرأة يفيض بشراً ولطفاً. وكانت تتدلى على صدغه الأيسر خصلات من الشعر الأشقر مقوسة إلى أعلى، وبين هذه الخصلات التي كانت تستقر على حافة قبعته كانت تبرز أذناه في جمال. لكن جوزدف كان يحتفظ مع ذلك بمظهر العامل غير الراضي عن نفسه، فهو يكاد يصيح بالغناء أو يرقص أو يتضارب فإنما هذه الخصلات المتهدلة على وجهه علامة على أن صاحبها من أولئك الرجال المقدامين الذين لا ينقصهم الحماس والذين يعرفون قدرهم حق المعرفة.

راح جوزدف يختلط بجمهور المتنزهين ويدفعهم بيديه في لطف، ملقياً حواليه نظرات الود والمحبة. فلم يثر سلوكه الجمهور. وكان يدوس فوق أطراف أردية النساء فيعتذر إليهن في أدب. كان يتقاسم والجميع استنشاق ذرات التراب الكثيفة وينعم بلذة إرسال النفس على سجيتها.

وبين أوراق الشجر، كانت تبدو الشمس وهي تغرب فوق السهول القابعة على الضفة الأخرى من النهر، فكانت السماء هناك ترتمي على صدر السهل الأخضر، وقد اصطبغت بحمرة قانية، وشاع فيها الدفء والحبور. وكانت ظلال الشفق تتراقص تحت أقدام المارة، لكنهم لا يلحظون جمالها الأخاذ. أما السيجارة التي كان يضعها في زاوية فمه اليسرى فكانت تضفي عليه طابعاً من الأناقة والخيلاء، بينما كان ينفث متأنياً الدخان من زاوية فمه اليمنى. وراح جوزدف يدرس الجمهور، فأحس برغبة عارمة في أن يرتاد مع أي إنسان المقهى القائم عند السفح، ويشاطره لذة الشراب والسمر، لكنه لم يلقَ أحداً من معارفه، كما لم يجد الفرصة الملائمة لتبادل الحديث مع أي فرد، فقد كان المارة عابسين رغم حلول العيد يوم ذاك، ورغم بهجة الربيع، ولم يتجاوبوا مع بشاشة جوزدف، مع أنه كان يوزع بسماته على الجميع، ويبدي لهم رغبته الشديدة في السمر.



وفجأة... لمح بين الأقفية البعيدة التي تمر أمامه، قفاً عريضاً حليقاً كأنه صقل بالفارة... وكان يعرف جيداً صاحب هذا القفا... إنه رئيس التحرير ديمتري بافلوفيتش إيستومين. فتذكر جوزدف ما فعله بهذا الرجل وراح يضحك وهو ينظر إلى قبعة ديمتري الرمادية القصيرة. فإذا اختفت هذه القبعة بين قبعات أخرى، بدت على جوزدف علامات الاضطراب، فوقف على أطراف أصابعه للعثور عليها من جديد، فإذا تم له ذلك عاوده الابتسام.

هكذا أخذ جوزدف يمشي وهو يتابع بنظراته رئيس التحرير. ولم يلبث أن عادت به الذاكرة إلى الوراء، أيام كان «نيكولكا، ابن الحداد» بينما لم يكن رئيس التحرير غير «متكا، ابن الشماسة». وكان لهما رفيق كانا يدعوانه بـ«الحلواني»، ورفيق ثان يدعى فاسكا جوكوف، وهو ابن موظف كان يقطن آخر منزل في الشارع. كان هذا المنزل حسن الشكل وإن كان عتيقاً، كما كان يغطيه الطحلب. كان والد فاسكا يمتلك مجموعة نادرة من الحمام. وكثيراً ما كانوا يلعبون «استغماية» في فناء ذلك البيت. لأن والد فاسكا ـ وكان رجلاً بخيلاً ـ كان يحتفظ في هذا الفناء بالكثير من المخلفات: كالعربات المكسورة والبراميل والصناديق.

أما فاسكا فقد صار الآن طبيب الحي، وأما المنزل العتيق فقد حلت محله الآن مخازن سكك الحديد... وكان لهما، عدا هؤلاء، رفاق آخرون... وكلهم صبية تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعاشرة. وكانوا جميعاً يقيمون في أطراف المدينة، في شارع «الأعماق الرطبة»، وكانوا يعيشون في وفاق تام فيما بينهم، وفي عداء دائم لصبية الشوارع الأخرى، وكثيراً ما كانوا يتلفون بساتين الفاكهة والخضراوات، ويلعبون الكرة... وما إلى ذلك. ثم جمعت بينهم المدرسة، لكنه تركها منذ خمسة وعشرين عاماً، وكم زامله



صبية وضيعوا الأمل مثله، فأصبحوا اليوم يشار إليهم بالبنان بينما هو ما يزال يقيم في شارع «الأعماق الرطبة».

ولكن هؤلاء استطاعوا أن يلتحقوا بالمدرسة الثانوية بعد أن أتموا دراستهم الابتدائية ـ أما هو فلم يستطع... لِمَ لا يحاول أن يحادث رئيس التحرير؟ يحييه فيتبادلان الحديث؟ ما عليه لكي يبدأ معه الحديث إلا أن يعتذر عن الفضيحة التي أثارها... ثم يتخاذل في شتى شؤون الحياة...

كانت قبعة رئيس التحرير دائمة الاختفاء والظهور أمام عيني جوزدف، فكأنها تريد أن تستلفت نظره. وعندما رأى جوزدف أن الازدحام يخف من حول رئيس التحرير، عزم على الذهاب لمحادثته. وكان يرتدي سروالاً فاتح اللون، اختفت فيه ساقاه الرفيعتان، ويتلفت حواليه لحظة بعد أخرى وعيناه القصيرتا النظر تطرفان كلما نظر إلى الجمهور، وكادت عيناه تتلاقيان بعيني جوزدف، فابتسم الأخير ابتسامة رقيقة في انتظار اللحظة الحاسمة لإلقاء التحية، وتاقت نفسه إلى تعرف سلوك رئيس التحرير نحوه.

ـ صباح الخير يا ديمتري بافلوفيتش.

فاستدار إليه رئيس التحرير ورفع قبعته بإحدى يديه وبالأخرى أحكم وضع النظارة فوق أنفه، لكنه لم يكد يتعرف على شخص جوزدف حتى بدت على وجهه معالم الكدر. لكن جوزدف لم ييأس وإنما انحنى أمام رئيس التحرير وسأله، ورائحة العرق تفوح من فمه:

ـ أظنك تقوم بنزهتك اليومية؟.

فتوقف رئيس التحرير لحظة وارتجفت شفتاه وأنفه اشمئزازاً، ثم ألقى إلى جوزدف هذه الكلمات الجافة:

ـ ماذا تريد؟



أنا؟ لا شيء! الجو جميل... ويغري بالنزهة. ويسرني أن أحدثك في تلك «المسألة»...

فقال له رئيس التحرير:

ـ أنا لا أريد أن أحدثك في أي موضوع.

وعجل بالمسير. فلحق به جوزدف:

ـ لا تريد أن تحدثني؟ أفهم... إنك على حق. لقد جعلتك تقف موقف الخزي، فمن الطبيعي...

وهنا توقف رئيس التحرير وقال:

ـ يبدو أنك سكران... إن لم تدعني وشأني، فسوف أستدعي البوليس.

فضحك جوزدف من أعماق قلبه:

ـ أوه! وعلامَ استدعاء البوليس؟!.

فنظر إليه رئيس التحرير بزاوية عينه نظرة تنم عن القلق، نظرة من يلقي نفسه في موقف حرج لا يستطيع منه خلاصاً. أما الجمهور فراح يلاحقهما بنظرات الفضول. وشم كثيرون رائحة الفضيحة فأصاخوا بأسماعهم بينما أخذ إيستومين يتلفت حواليه حائراً فأدرك جوزدف حرج موقفه وقال:

ـ هيا نتنحى جانباً من الطريق.

ودون انتظار موافقته، دفع إيستومين من كتفه وقاده إلى طريق ضيق بين الأدغال. ولم يمانع رئيس التحرير: ربما لأن المفاجأة أذهلته أو لعله أمل من وراء الانفراد بمحدثه بعيداً عن أعين الناس، أن يتخلص منه بطريقة أسهل وأسرع. وسار في تمهل وحذر، وهو يجر عصاه فوق الأرض، وجوزدف يتبعه قائلاً وكأنه يخاطب قبعة رئيس التحرير:



ـ ها هو جذع شجرة مكسورة... هيا نجلس هناك. لا تحنق عليّ يا ديمتري بافلوفيتش، سامحني!. صحيح أنني «فعلتها نكاية بك»، ولكنك تعلم أن الغضب يعمينا في بعض الأحيان لدرجة لا يجدي معها شرب الخمر، وحينئذ نسيء إلى الناس أو نلطم عابر السبيل... أو ما شابه كل ذلك. ولكنني لست نادماً على ما صدر مني... فما فات مات، وإن كنت أشعر بأنني جاوزت حدودي.

تأثر رئيس التحرير لأقوال جوزدف الصادقة، فأحب أن يستمع إليه... أم تراه أيقن أن لا سبيل إلى التخلص من هذا الرجل؟ وعلى كل حال، فقد سأل رئيس التحرير جوزدف:

ـ عمّا تريد أن تتحدث؟.

ـ عن كل شيء! فأنا حزين... حزين لأنني مظلوم ومهضوم الحق... هيا نجلس هنا.

ـ ليس لدي وقت للجلوس... طبعاً! الجريدة! إنها تمتص كل وقتك وصحتك! يمول مدير التحرير الجريدة... بينما تدفع أنت دمك! ها أنت ذا قد ضعف بصرك من طول الكتابة... ما لك لا تجلس؟...

وكان يرقد أمامهما جذع كبير، هو البقية الباقية من شجرة سنديان كانت ضخمة يوماً ما. وكانت غصون شجر البندق تتدلى فوق هذا الجذع مكونة فوقه سقفاً من الخضرة، والسماء تطل عليهما من بين الغصون وقد غمرتها ألوان الغروب، والجو عبق بشذى الشجر. فجلس جوزدف ثم راح يدير فيما حوله نظرات حائرة، وهو يستطرد قائلاً لرئيس التحرير ـ وكان لما يزال واقفاً:

ـ أفرطت في الشراب اليوم... لقد مللت الحياة يا ديمتري بافلوفيتش،



أشعر أنني انفصلت عن زملائي العمال ـ لست أدري كيف ـ وأصبحت أخالفهم في التفكير والرأي. وما أن لمحتك اليوم حتى تذكرت أنك كنتَ من زملائي، أنت أيضاً... ها ها!.

ضحك لأن الانفعالات كانت تتلاحق بسرعة على وجه رئيس التحرير حتى بات منظره مثيراً للضحك.

ـ أكنتُ زميلك؟ متى؟.

ـ منذ زمن بعيد يا ديمتري بافلوفيتش... وكنا نقيم حينئذ في شارع «الأعماق الرطبة»، أتذكر؟ وكان يقيم أمامنا مشكا الحداد ـ وهو اليوم ميخائيل جفيموفتش كرولف، قاضي التحقيقات ـ وكان يقيم مع والده، ذلك الرجل القاسي. أتذكر جيفموفتش؟ ما أكثر ما كان يشد شعرنا... ما لك لا تجلس؟!.

فهز رئيس التحرير رأسه علامة الموافقة. وجلس بجوار جوزدف، وراح يحك جبهته وينظر إليه كمن يريد أن يتذكر شيئاً طواه النسيان منذ أمد بعيد. أما جوزدف فراح يهيم في عالم الذكريات:

ـ يا سلام! كم كانت حياتنا جميلة في تلك الفترة من العمر، لِمَ لا يظل الإنسان طفلاً طوال حياته؟ إنه يكبر، فلماذا؟ لكي يعود إلى التراب. ويعاني طوال حياته مختلف أنواع الشقاء... حتى يصيبه الكمد ويخمد ذكاؤه... فيا للحياة من دعابة لطيفة، يعيش الإنسان لتنتهي حياته بالسخافات... مجرد تابوت... وينتهي كل شيء. أما في الطفولة، فقد كنا نعيش دون أن نعرف الأفكار السوداء، فكان للحياة حينئذ بهجة أي بجهة. كنا كالعصافير الطائرة في الهواء، وأيام جني الخوخ... نتنقل فوق أسوار الحدائق كأننا الفراش... أتذكر يوم كنا نسرق حديقة بتروفنا، فقذفتك بخيارة أصابت أنفك؟ لقد



أخذت تصرخ بينما أطلقت ساقيَّ للريح... ثم جئت مع والدتك لتشكوني إلى أبي، فضربني على ساقي... أتذكر ميشكا، أستغفر الله، أعني ميخائيل جفيموفيتش...

أصغى إليه رئيس التحرير ملياً، وابتسم بالرغم عنه مع أنه ودّ لو حافظ على وقاره وهيئته أمام هذا الرجل الذي يرفع الكلفة بينه وبينه، لكن الذكريات التي أعادت إليه أيام الطفولة الصافية كان فيها شيء من الرقة الآسرة. كما أن لهجة جوزدف حركت في نفس رئيس التحرير ذكرى حب قديم، ثم إن الجو كان جميلاً صافياً، وبأعلى السفح، كان ينتشر وقع أقدام المتنزهين فوق الرمال، أما أصواتهم فكانت لا تكاد تصل، إلا من ضحكة ترن بين آونة وأخرى، حتى إذا تنهدت الرياح ابتلع حفيف أوراق الشجر كل هذه الأصوات الخافتة، ثم يوشك الحفيف الحزين على الموت، فيسود الصمت المطبق لحظات قصيرة وكأنما الكون يرهف السمع لأقوال جوزدف، وهو يستعيد ذكريات الشباب:

ـ أتذكر فارنكا، ابنة الرسام الذي كان يسكن في عمارة كولكتزف، إنها الآن زوجة شابكنكف صاحب المطبعة، أصبحت من سيدات المجتمع، ويخشى المرء أن يمر يجانبها... مع أنها كانت فتاة فقيرة... أتذكر يوم أن اختفت من بيت أهلها فخرجنا مع صبية الحي للبحث عنها في الخنادق والحقول، ثم وجدناها في المعسكر[1]. وأعدناها إلى بيتها... بعد أن أثار اختفاؤها ضجة كبيرة، وكافأنا كولكتزف بقطع من البسكوت. ولما التقت فارنكا بأمها قالت: «كنت عند زوجة الضابط، وعرضت عليّ أن تتبناني»!. ها ها! كم كانت صبية لطيفة!.

وأتت من ناحية النهر أصوات مبهمة كأنها تنهد صدرٍ قوي مفعم

---

(1) - يعسكر الجند في روسيا، خلال فصل الصيف، في مخيمات يقيمونها في العراء.



بالحسرة. ثم مرّ قارب بخاري أثارت عجلاته صفحة المياه فراح هديرها ينتشر في الفضاء. وكانت السماء وردية اللون بينما الظلمات تتكاثف حول جوزدف ورئيس التحرير، ثم أتى ليل الربيع رويداً رويداً، فاشتد السكون وطأة وعمقاً، وأخفض جوزدف صوته كأنما امتثالاً لحكم السكون. بينما رئيس التحرير يصغي إليه دون أن ينبس بحرف، وصور الماضي العكرة تتلاحق في خياله. ألا إن هذا الماضي لخير ألف مرة من الحاضر الذي يحيا فيه. ففي الطفولة فقط، يتمتع المرء بالحرية ولا يحس بوطأة القيود التي نسميها «شروط الحياة». والطفولة لا تعرف وخزات الضمير المؤلمة، كما لا تعرف الكذب إلا بريئاً صافياً. فكم تجهل الطفولة من أشياء وكم هو جميل ذلك الجهل بها. لكن العمر يتقدم بالإنسان فيتسع إدراكه للحياة شيئاً فشيئاً... فماذا تجدي سعة إدراكنا للحياة إذا كنا نموت دون أن ندري شيئاً عن وجودنا؟.

ـ وهكذا يتبيّن لك يا دمتري بافلوفيتش أننا طائران كان مسكنهما عشاً واحداً... أجل، ولكن كلاً منا طار في اتجاه يختلف عن الآخر. إنني أشعر بالمرارة وانكسار القلب عندما أفكر أن كل ما هنالك من فرق بيني وبين زملاء الصبا إنما هو في أنني لم ألتحق بمدرسة ثانوية ولم أدفن رأسي في صفحات الكتب... فهل لا يكون الإنسان إنساناً إن لم يفعل ذلك؟ هل الإنسان هو من يتخرج من المدرسة وحسب؟ إن الإنسان ليعرف من نفسيته ومشاعره نحو أخيه الإنسان. أما في نظرك أنت فأنا لا أساوي شيئاً! ألست أقول الصواب؟

لكن رئيس التحرير كان مشغولاً وقتئذ بأفكاره الخاصة، فلم يسمع سؤال محدثه جيداً، فقال بلهجة صادقة شاردة:

ـ بالضبط!.



وهنا أخذ جوزدف يضحك، فاستطرد رئيس التحرير:

ـ رويدك! ما هو هذا «الصواب»؟.

ـ أن أكون في نظرك لا شيء. بل إن وجودي أو عدم وجودي سيّان عندك ـ فما وجه حاجتك إلى شخص مثلي؟ إنني وحيد في هذا العالم، فكل من عرفني ذاق مني الأمرّين ـ وذلك لأنني إنسان ميال إلى الشر والخداع. ومع ذلك فأنا لست مجرداً من المشاعر والعقل. إنني أشعر بأني مهضوم الحق. فيم امتيازك عني؟ إنه امتياز بالمهنة فحسب.

فقطب رئيس التحرير جبينه وقال:

ـ أجل. وإن هذا لأمر مؤثر!.

وصمت برهة ثم استطرد بلهجة مرضية:

ـ يجب أن تنظر إلى المسألة من وجهة أخرى.

ـ دمتري بافلوفيتش، ما فائدة وجهات النظر؟ إن اهتمام الإنسان بأخيه الإنسان لا ينبغي أن يكون وليد وجهة نظر معينة. فإنما هو شيء ينبع من القلب! ثم ماذا تكون هذه الوجهة الأخرى من النظر؟ إنني أتحدث عن ظلم الحياة. فهل يمكن أن تبرر الظلم وجهة نظر أياً كانت؟ إنني أعيش في بؤس مرير. فلِمَ هذا كله؟ ألأنني لست عالماً؟ ولكن عليكم ألا تنسوني أيها العلماء ـ وأنتم تفكرون لا في وجهات نظر كتلك التي تتحدث عنها، وإنما فيما هو أليق من ذلك وأجدى ـ فأنا وأنتم ثمرة حقل واحد، **فعليكم أن ترفعوني إلى مستواكم وتنتشلوني من هذا الحضيض حيث يفسدني الجهل والمشاعر المريرة.** أليس أولى بوجهات نظركم أن تفرض عليكم ذلك؟.

وغمز جوزدف بعينه، وملأه الشعور بالنصر وهو ينظر إلى وجه



رئيس التحرير، وشعر بالانتعاش بعد أن فرغ من توضيح فلسفته التي هي ثمرة أعوام طوال من حياته الحافلة بالعمل، المضطربة، المجدبة. أما رئيس التحرير فقد ارتبك إزاء هذا الهجوم، وحاول أن يحدد أمرين هما: ماهية هذا الرجل. والاعتراضات التي يمكن توجيهها إلى أقواله. بينما استطرد جوزدف، وقد تملكته نشوة غريبة:

ـ ولكنكم أذكياء، فلن يستعصي عليكم أن تردوا عليّ أقوالي. ستقولون ما معناه: نحن غير ملزمين! ولكني أقول: بل إنكم ملزمون! لماذا؟ لأنني أنا وأنتم، من شارع واحد وبيئة واحدة. أنتم لستم نبلاء الأصل، فلستم إذاً من طبقة السادة. أما هؤلاء السادة فسيصرخون في وجهي: «اذهب إلى الشيطان»! ـ وما إلى ذلك إلا لأنهم أرستقراطيو المولد. أما أنتم، فإن كنتم أرستقراطيين فلأنكم تعرفون النحو وما إلى ذلك. ولكنكم أهلنا وعشيرتنا، فلي أن أطالبكم بأن تأخذوا بيدي. إنني واحد من عامة الشعب، وكذا كرولف، وأنت أيضاً ـ فأنت ابن شماس.

وهنا قال رئيس التحرير بلهجة فيها توسل:

ـ رويدك... رويدك! وهل أنكرت حقك في أن تطالب بذلك؟.

لكن جوزدف لم يكن يهمه قط أن يعرف ما ينكره وما يعترف به رئيس التحرير، وإنما كان يستشعر الحاجة إلى قول أشياء كثيرة اعتملت في صدره طويلاً، ولقد شعر في تلك اللحظة بقدرته على التعبير عن كل ما شغله وعذبه فيما مضى. فمال على رئيس التحرير وغمغم وقد التمعت عيناه:

ـ بل رويدك أنت، أتظن أنه يسرني أن أقوم بخدمة رفاق الصبا؟. أيسرني أن يناولني «كرلوف» قاضي التحقيقات أربعين كوبيكاً على سبيل «البقشيش»، بعد أن أصلحت مرحاض بيته منذ حوالي عام؟ مع أن كرلوف



إنسان لا يختلف عني في شيء... وكنا نلقبه بـ«مشكا الحلواني»، وما زالت أسنانه فاسدة ومتآكلة...

وبح صوته فسكت لحظة ليطلق بأعلى صوته سبة بلغت من القذارة والدناءة حداً جعل رئيس التحرير يرتعد ويميل بجسمه إلى الوراء. وما أن صاح جوزدف بهذه السبة حتى خفت حدته فجأة ـ وكأن النار المشتعلة في جوفه قد خمدت. لقد شعر أنه قال كل ما كان يود قوله، فغمغم قائلاً:

ـ هذا كل ما عندي!.

وأحس بفراغ جعبته، فإذا به يضيق ذرعاً بهذا الخواء البارد.

أما رئيس التحرير فكان يلحظه ويفكر فيما يمكن قوله لهذا الرجل الجريء. يجب أن يقول له شيئاً جدياً، صادقاً، مخلصاً. لكنه لم يعثر وقتئذ على شيء من ذلك عند ديمتري بافلوفيتش إيستومين: لا في رأسه ولا في قلبه. فالنقاش حول «الفكرة» كان يورثه دائماً الملل والإعياء. ولقد خرج اليوم للنزهة، وتعمد أن يتجنب لقاء المعارف، ثم إذا به يواجه هذا الرجل وأقواله.

لا شك في أن هذه الأقوال تحوي ـ أسوة بكل قول ـ جزءاً من الحقيقة. ثم إنها أقوال غريبة تصلح لأن تكون موضوعاً طريفاً لإحدى القصص. لكن المهم أن يرد على هذه الأقوال.

قال:

ـ أعلم أنك ما جئت في أقوالك بشيء جديد... فظلم الإنسان للإنسان من المسائل التي قتلها الناس بحثاً. لكن الجديد في الأمر أنك تختلف عن كل من بحثوا هذه المسألة من قبل، فهؤلاء لم يكونوا من الطبقات العاملة. ولكنك كونت رأيك بعد أن نظرت إلى الموضوع من وجهة واحدة لا تخلو من الخطأ.



فلاحت على شفتي جوزدف ابتسامة شاحبة وقال:

ـ ها قد عدنا إلى «وجهة النظر»! ألا ما أذكاكم أيها السادة! ولكن يبدو أن قلوبكم... يا سيدي قل لي شيئاً يناسب ما أنا فيه من بؤس وشقاء!... هذا هو المطلوب!.

قال عبارته الأخير حاني الرأس، انتظاراً لتلقي الجواب ـ بينما الحسرة تغزو أقطار نفسه.

نظر إليه إيستومين مقطب الجبين، فشعر برغبة عارمة في الانصراف وبدا له أن النشوة التي خففت من حدة جوزدف بعد حديثه الثائر راحت تتملكه أكثر فأكثر. ثم أخذ ينظر إلى قبعته البيضاء التي كانت تصل حتى قفاه ويتفحص شخصه القوي الثائر، فحدثته نفسه بأنه إزاء عامل لا نظير له بين العمال، وأنه إذا...

وهنا سأله جوزدف:

ـ ما لك لا تتكلم!.

ـ ماذا عساي قائل لك؟ الواقع أن الموضوع ليس واضحاً في ذهني جيداً...

فارتسم على شفتي جوزدف شبح ابتسامة وقال:

ـ عظيم، ها أنت ذا تعجز عن الرد على أقوالي.

فتنهد رئيس التحرير ليخفف عن نفسه، واعتقد أن الحديث قد انتهى عند هذا الحد، وأن جوزدف لن يضايقه ثانية بالإلحاح في السؤال. وفجأة قال في نفسه: «ولو يضربني مثلاً، إن شريراً مثله لن يتورع عن ذلك». ولاح لخياله منظر جوزدف وهو واقف في قاعة التحرير للمرة الأخيرة، فأخذ ينظر إليه بزاوية عينه نظرات كلها ارتياب.



كان الليل قد أرخى سدوله على الكون، والسكون شاملاً إلا من أصوات غناء يأتي من بعيد... من شاطئ النهر. كانت تصل أصوات «الكورس» وحدها، أما صوت المغني فكان لا يكاد يصل إلا مبهماً مهوشاً. وكانت تحوم في الجو خنافس كبيرة، لأجنحتها حفيف كصليل السيوف. وكانت النجوم تطل عليهما من خلال أوراق الشجر، والغصون تهتز بين آونة وأخرى فيسمع لأوراقها حفيف، خفيف...

قال رئيس التحرير بلهجة فيها تحذير:

ـ يبدو أن الندى سوف يتساقط...

فارتعد جوزدف والتفت إليه:

ـ ماذا قلت؟.

ـ أقول: إن الندى سوف يتساقط، والتعرض له مضر بالصحة.

ـ أ أ...

وساد الصمت. ثم دوت فوق النهر صيحة عالية:

ـ الطوف! الطوف.

ـ سأنصرف الآن. إلى اللقاء!.

فقال له جوزدف:

ـ ما رأيك لو شربنا معاً قدحاً من البيرة...، ثم لاح على شفتيه شبح ابتسامة وهو يقول: شرفني بالقبول.

ـ اعذرني. لا يمكنني الشرب في هذه الساعة. كما إنه قد حان الوقت...

وهنا نهض جوزدف من تحت الشجرة ونظر إلى رئيس التحرير بوجه عابس. فنهض الأخير وصافحه. وأحكم جوزدف وضع قبعته. ثم قال:



ـ ما دمت لا تريد أن تشرب معي قدحاً من البيرة يا حضرة الأرستقراطي، فاذهب إلى الشيطان! وسوف أسكر بمفردي!...

فأدار رئيس التحرير ظهره إلى محدثه، وتهيأ لصعود سفح التل دون أن ينبس بحرف. وعندما مر أمام جوزدف، دفن رأسه بين كتفيه كأنما يخشى عليها من الاصطدام بشيء. أما جوزدف فهبط سفح التل في خطوات واسعة. بينما أتى من ناحية النهر صوت متقطع:

ـ أنتم... يا أصحاب الطوف! ماذا جرى، لِمَ لا تأتون؟.

وانتشر الصدى خافتاً بين الأشجار.




Arab_Books

كفـــاح

الجزء الثاني

كانت العجلات تتقعقع وكأنها تتوجع، وزوابع الغبار تحوم في الجو، والجد يسعل دون انقطاع ورأسه يرتج من شدّة السعال. أما لنكا فكان يحلم بالقرية القوزاقية حيث يدندنون تحت النوافذ بالأغنية السرمدية «إلهنا يسوع المسيح...» وحيث سيعاكسه أبناء القرية وتضايقه النسوة بأسئلتهن عن روسيا وعن آلاف الأشياء. وبينما هو يعد الجواب يشتد سعال جدّه ويحني رأسه بشدة حتي ليصيب لنكا الخوف كما حدث له أحياناً. وحتى يقطع النحيب صوته المنعم باليأس المتزايد، بينما هو يسرد أهوالاً بعيدة التصديق.

إنه سوف يحكي أن المجاعة تقرض في روسيا كل فرد حتى أن الناس ليسقطون في الشوارع جثثاً هادمة تظل في أماكنها أياماً بأكملها دون أن يواريها أحد التراب. والواقع أن شيئاً من ذلك لم يحدث قط.

ومع ذلك فإنه سيحرص على نشر هذه الخرافات حتى يسهل حصولهما على الصدقة. ثم ماذا يفعلان بالصدقة التي يتلقونها هنا؟ في أماكن أخرى يباع الـPonde [1] بما يتراوح بين 40 إلى 50 كوبيكاً. أما في

(1) - ما يعادل 16 ونصف كيلوغراماً.



هذه المنطقة فلا أحد يزيد الشراء. وكثيراً ما يفوت عليهما بيع أشياء ثمينة: لِمَ إذاً يتنقل الجدّ من قرية لأخرى سريعاً هكذا؟ بل ولعله أن يقيم أسبوعاً في كل بلدة!... لا! إنه بمجرد أن يصل يقوم بجولته فيجمع أكبر قدر ممكن ثم يفر بعيداً كما لو كان لصاً تطارده العدالة.

سأله لنكا عن السر في هذا يوماً فأجابه الشيخ في حزن وشيء من الاستياء: أنت أحمق، اسكت! اسكت! إنك لا تستطيع أن تقدر الهم الذي أتحمله من أجلك. لا تستطيع أن تعرف أملي في الحياة. سعادتك هي ما أبحث عنه! وربما أمكنني أن أجنبك حياة الفلاح القاسية: اسكت إذاً!.

ـ أمعتزمان الشحاذة؟.

هكذا سألهما القوزاقي وهو يتأمل وجهيهما الحزينين. فأجاب الجد وهو يتنهد:

ـ هذا واضح أيها السيد الكريم.

ـ قف أيها الجد، أريد أن أدلك على مسكني يمكنكما أن تأتيا إلى البيت عندي.

تحامل الشيخ للنهوض لكنه سقط فاصطدمت خاصرته بحافة العربة فصرخ من الألم.

أردف القوزاقي قائلاً وقد أخذته الشفقة به:

ـ ابق جالساً يا جدي! وإن احتجت في يوم من الأيام لمأوى اسأل عن شرني، أندريه شرني... هذا هو اسمي! والآن انزل ـ وإلى اللقاء.

ألفى الجدّ ولنكا نفسيهما أمام دغل من أشجار الحور. وبين الغصون كانت تبدو أطراف الأسوار الخشبية، والدهاليز بين أشجار الحور تنبث في كل مكان، عن يمين وعن يسار. يعلق بأوراقها الخضراء ذرات من تراب



ناعم يميل إلى لون الرماد، وكانت قشرة جذوعها الباسقة المستقيمة قد تساقطت بتأثير الحرارة.

انفتح أمام المشردين زقاق يحف به سياج خشبي. وكان القوزاقي قد سلك هذا الزقاق.

شرعا يسيران ببطء صوب هذا الزقاق... سير من أفضى حياته الطواف بالطرقات.

سأل الجد:

ـ والآن! ما رأيك؟ أنذهب معاً أو يتخذ كل منا طريقاً؟.

ودون انتظار الجواب أردف قائلاً:

ـ الأفضل أن نمشي معاً، فلن يعطونك كثيراً إذا كنت بمفردك! أنت لا دراية لك بأصول الشحاذة!.

ـ وما الذي سيجد علينا إن هم أعطونا كثيراً إننا لن نستطيع مع ذلك أن نأكل كل ما نشتهيه.

هكذا أجاب لنكا مشيحاً برأسه، والتذمر بادٍ عليه.

ـ ألا تعرف ماذا سيجد علينا أيها الولد العجيب؟ ربما وجدنا من يشتري منا هذه الحاجيات، وبذا نحصل على النقود. والنقود شيء ثمين جداً، بها يمكنك أن تنجو من المصاعب التي ستواجهك بعد موتي.

ومر الجدُّ بيده على رأس الطفل، مبتسماً ابتسامة لطيفة:

ـ أتعلم كم جمعت خلال رحلتنا الأخيرة في البحر؟

فسأل لنكا وقد بدا عليه عدم الاهتمام: كم؟.

ـ إحدى عشر روبلاً ونصف روبل! جميل؟.



لكن لا الرقم، ولا فرحة الجد أدخل على قلب لنكا السرور. فقال الشيخ وهو يتنهد:

ـ ما لك؟ يذهب كل منا في طريق؟

ـ كل منا في طريق.

ـ لكن! على أن نتقابل عند الكنيسة.

ـ وهو كذلك.

وانحرف الجد إلى يسار الزقاق، بينما سلكه لنكا. ولم يكد يسير عدة خطوات حتى بلغه صوت واهن مرتجف: «إحسان لله يا فاعل الخير...» لكأن هذا الصوت الباكي أنغام نشاز أصدرتها قيثارة حين مرت يد على أوتارها بادئة بأغلظها حتى أرفعها. انتفض لنكا وأسرع في سيره.

كانت شكاوى جدّه هذه توقظ في نفس الطفل دوماً شعوراً كريهاً يملأ قلبه بالشجن. فإذا ما أجهش الجد بالبكاء لامتناع أحدهم عن الإحسان إليه، كان لنكا يكاد يسقط مغشياً عليه.

ومن أقاصي القرية ظل يتناهى إليه صوت الجدّ مفعماً بالحزن ومرتجفاً، يحمله إليه الهواء الناعس الخانق. وكان الهدوء عميقاً كأنه الليل لا النهار.

أخذ لنكا يسير بحذاء الأدغال التي كانت تحف بالطريق، ثم جلس في ظل أشجار كرز تتدلى أغصانها حتى تكاد تلامس الأرض وكان ثمة نحلة تطن بالقرب منه.

نزع جرابه من فوق كتفيه واستند برأسه إليه. تأمل السماء برهة، من خلال أوراق الشجر التي كانت تظلل وجهه، ثم نام نوماً عميقاً، تحميه من أعين المارة الأعشاب الطويلة الكثيفة والظلال التي كانت تلقيها الأسوار الخشبية:



أيقظته ضجة غريبة كدرت صفو هواء الشفق، ثمة شخص كان يبكي على قيد خطوات منه. كان نحيباً طفلياً مفعماً بالحزن، يجاهد صاحبه في كبح جماحه. ولم تكن تخفت الآهات إلا لتنطلق بصوت أعلى، وهي تقترب شيئاً فشيئاً. فرفع رأسه وامتحن الطريق من خلال أوراق الشجر.

رأى صبية جميلة تناهز السابعة من العمر، نظيفة الملبس، يكسو الاحمرار وجهها، وعيناها منتفختان من البكاء. وكانت تمسحهما من آن لآخر بطرف ثوبها الأبيض المصنوع من الشيت. كانت تمشي متباطئة الخطو تجر قدميها جراً فتثير غباراً كثيفاً، دون أن تدري شيئاً عن وجهتها أو عما يدفعها إلى المسير.

كان يقرأ في عينيها الواسعتين السوداوين المليئتين بالدموع نوعاً من الحزن البالغ. وكانت أذناها الصغيرتان الرقيقتان تبرزان في جمال، من بين كتلة شعرها الأسمر الذي كان يتهدل على جبهتها وخديها وكتفيها.

ومع أنها كانت تبكي فقد ألفاها لنكا طفلة مسلية يبدو عليها الميل إلى المرح واللهو... فلا بدّ أنها طفلة متمردة.

ـ سألها بمجرد أن حادثته:

ـ لِمَ تبكين؟

انتفضت وتوقفت عن السير، وكفت عن البكاء بصوت مسموع لكنها ظلمت تنتحب في سكون. حدقت فيه لحظات ثم عادت ترتجف شفتاها وتنقبض ملامحها بطريقة مضحكة ثم خفق صدرها واستأنفت السير وقد علا بكاؤها. شعر لنكا بشيء يحز في قلبه فقرر أن يتبعها. ولم يكن قد لحق بها بعد، حين استطرد قائلاً:

ـ كفى بكاء! ألست خجلة؟ أتبكي بنت كبيرة مثلك؟!...



ولما حاذاها تفرس فيها وهز كتفيه وقد بدا عليه الاهتمام وكرر سؤاله:

ـ هيا قولي! ما الذي يجعلك تبكين هكذا؟!.

فقالت بصوت متراخ:

ـ آه! طبعاً أبكي! لو تبتلي بما أنا فيه!...

وجلست على الأرض وأخفت وجهها بين يديها وأخذت تبكي بحرقة.

أتى لنكا بحركة تدل على الاحتقار، وقال:

ـ آه! لست سوى امرأة، هذه هي المسألة!.

لكن هذا التصريح لم يجد فتيلاً. راح لنكا يتأمل الدموع، وهي تتساقط من بين أصابع الصبية الوردية الدقيقة... فأشجاه هذا المنظر واستبدت به رغبة عارمة في البكاء. مال عليها ومر بيده على شعرها في حنو شديد، لكنه لم يلبث أن رفع يده كأنما هالته جسارته.

لكنها لم تكف مع ذلك عن البكاء والتزم الصمت. فاجتاحت لنكا رغبة شديدة في معاونتها فاستطرد قائلاً:

ـ اسمعي! اسمعي! قولي لي لِمَ تبكين... أضربك أحد؟ وإنه يعني: بسيطة...! أهناك سبب آخر؟ قولي لي ما هو... أرجوك...! سترين أن هذا يخفف عنك. أو لعل شيئاً ضاع منك؟ في هذه الحالة، يمكننا أن نبحث عنه نحن الاثنين...

فهزت الصبية رأسها في حزن، وأجابته وهي تنتحب ـ ودون أن ترفع عن وجهها يديها:

ـ إنه شال!... فقدته... كان أبي قد اشتراه لي من السوق... شال أزرق منقوش عليه ورد... لبسته، وضيعته.



وراحت تبكي بصوت أعلى. ومن آنٍ لآخر، كان يقطع نحيبها صيحات تعجب مختنقة: «أوه! أوه! أوه»!.

أدرك لنكا أنه لن يتمكن من مساعدتها فشعر بالخجل وابتعد عنها قليلاً، واستغرق في تأمل السماء متفكراً حزيناً. شعر بالحرج وبالشفقة على الطفلة. قال لها بصوت خافت:

ـ لا تبكي. قد نعثر عليه.

أدرك أنها لا تعير مواساته أي اهتمام، فابتعد عنها خطوات أخرى، وهو يقدر أنها لا شك سوف تُضرب عند عودتها إلى البيت عقاباً لها على فعلتها. وتخيل ما سوف يحدث: الأب القوزاقي متجهم الوجه، قوي البنية، ينهال عليها ضرباً بينما هي تتدحرج عند قدميه مرتعشة، وتبكي بكاءً حاراً من فرط الرعب والألم.

ابتعد لنكا مسافة أخرى، حزيناً مستاءً لشعوره بالعجز عن نجدتها. لكنه لم يلبث أن عاد أدراجه واستند إلى السياج، تجاهها مباشرة، وحاول أن يقول لها عبارات ودية رقيقة لكن باله لم يسعفه بواحدة:

ـ قفي على الأقل أيتها الصبية ولا تجلسي على الأرض هكذا. إنني أرجوك أن تكفي عن البكاء وترجعي إلى بيتك وتشرحي ما حدث. قولي ببساطة أنك فقدت شالك. أتخافين أن يضربوك بالعصا؟ هل ذقت ضرباتها؟.

كان يجاهد في بادئ الأمر أن يأتي صوته رقيقاً حنوناً. ولكن سره أن يرى الطفلة تقف عند سماعها عباراته التهكمية الأخيرة. فاستطرد قائلاً، وهو يبتسم في فرح:

ـ عظيم! ارجعي إلى بيتك! تحبين أن أذهب معك وأحكي الحكاية لوالديك؟ لا تخافي! يمكنني أن أدافع عنك.



وهز لنكا كتفيه بعظمة، وألقى حواليه نظرة مزهوة. فتمتمت الصبية: «لا أريد منك شيئاً». ونفضت ثوبها المترب، وهي لما تزل تبكي. فقال لنكا بصوت خشن، وهو يخفي أذنيه تحت قلنسوته:

ـ إنني على استعداد أن أذهب معك، إن كنت تريدين ذلك!.

وشد قامته، وباعد ساقيه. لاح كأن أسماله البالية ترتعش ثم ضرب الأرض بعصاه وركز بصره على الصبية. كانت عيناه الواسعتان الحزينتان تلتمعان جسارة وشهامة.

نظرت إليه الصبية في احتراس، وهي تمسح وجهها المبلل بالدموع ثم تنهدت وأضافت قائلة: «إياك أن تأتي!... أمي لا تحب الشحاذين»!.

ثم ذهبت، بعد أن عادت أدراجها مرتين لتتحقق من أنه لا يتبعها.

شعر لنكا بالفتور يتولد في نفسه، فقد تلاشى عزمه وجسارته شيئاً فشيئاً وعاوده الإعياء والملل. فانحنى وألقى جرابه على كتفه ـ وكان لما يمسكه بيده، وصاح بالصبية وهي على وشك الاختفاء عند منعطف الزقاق:

ـ وداعاً!.

التفتت للمرة الأخيرة ثم اختفت... فبدا للنكا أن الكون حوله يشتد حزناً وسواداً. وظهرت بشائر الأصيل وغمر الجو حرارة خانقة تنذر بعاصفة وشيكة. وكانت الشمس عند سمت الأفق تنعكس على قمم أشجار الحور فتطرزها بوشي أرجواني. ثم راح غسق الدجى يزحف على الغصون والأشجار الباسقة الصلبة تتبدى كأنها تطول وتزداد عظمة، فكان أن اعتقد لنكا أن ثمة شيئاً يشغلها فهي تستعد لملاقاة عدوّ رهيب. ثم راحت الشمس تأفل عند سمت الأفق الغائم بينما آخر أشعتها يودع قمم الشجر، لكأنها، في غروبها، تغوص في جوف الأرض.



ثمة أصوات كانت تسمع عن بعد، وفي جهة أخرى كان أحدهم يغني وصوته الواهن المرتجف يلوح كأنما تجثم عليه الحرارة الخانقة التي كانت تطبق على الجو.

استولى على لنكا حزن وخوف لا يدري كنههما. وأحس برغبة مفاجئة في أن يلحق بجده، فراح يغذ السير في الزقاق. لم يرد أن يتسول. انطلق بسرعة كبيرة، وهو يحس بقلبه يكاد يقفز من صدره. وأضناه المشي والتفكير معاً، لكنه لم يستطع التخلص من خيال الصبية. ترى ماذا جرى لها؟ أعادت إلى بيتها؟ أتراها غنية؟ إن كانت أسرتها ميسورة الحال فسوف تضرب حتماً، فالأغنياء بخلاء كلهم، أما إن كان والداها فقيرين فربما لم يضربانها، فالفقراء يحبون أطفالهم أكثر من الأغنياء، لأن الأطفال الأولين هم عدة المستقبل. هكذا راحت تتعاقب الأفكار في رأس لنكا فتضاعف من شعوره بالحزن الممض المرهق، ذلك الشعور الذي دهمه كليل شديد الحلكة والكآبة.

بلغ الشفق ذروته واشتدت حرارة الجو. التقى لنكا بجماعة من القوزاق تصحبهم نساؤهم وبناتهم لكنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء النظر إليه، فلا شك أنهم اعتادوا رؤية المتسولين القادمين من روسيا. فألقى نظرة مخيفة على هؤلاء القوم الشبعانين الضاحكي الوجوه وأسرع إلى الكنيسة، وكانت تبدو قبتها متألقة بين الأشجار النضيرة... وأخذ يصغي لجلبة قطعان الحيوانات في عودتها إلى الحظائر.

لاحت الكنيسة أخيراً: صغيرة فسيحة تعلوها خمس قبات سماوية اللون وتحوطها أشجار حور تجاوز قممها الصلبان التي كان يضيئها آخر أشعة الشمس الغاربة فكانت تتلألأ بين أوراق الشجر وتبعث ضياءً ذهبياً بلون الورد.



وها هو الجد يقبل إلى ساحة الكنيسة، مقوس الظهر تحت ثقل جرابه، إنه يبحث حواليه وقد غطى عينيه بيده. ووراء الجد، يتقدم قوزاقي متباطئ الخطو تصل قلنسوته حتى جبهته ويمسك عصا في يده.

ـ جرابك فارغ، أليس كذلك؟

هكذا يسأل الجد، وهو يقترب من لنكا ـ وكان هذا الأخير ينظر إلى جدّه وهو يأتي مستنداً إلى سور الكنيسة. «أما أنا... انظر ماذا أحضر معي»!.

وتخلص، وهو يتأوه، من جرابه المصنوع من نسيج سميك ألقاه على الأرض.

ـ الناس هنا يعطون بسهولة، إنهم كرام جداً. لكن ما لك متجهماً هكذا؟ فأجاب لنكا في صوت ضعيف: «بي صداع...». وتمدد فوق التراب إلى جانب جده الذي راح يتحسس الصدقات بيده، وقد اتكأ على كومةٍ من الآجر وبدا عليه الفرح والشره:

ـ أنت «تعبان»؟ سنذهب بعد قليل لننام.

ـ ما اسم القوزاقي الذي أتى بنا إلى هنا؟

ـ أندريه شرني.

ـ بالضبط! شرني. هيا نسأل عن مكان بيت أندريه شرني. ها هو رجل آتٍ من هنا. أجل، إن الناس هنا طيبون وأغنياء. كلهم يأكلون خبزاً أبيض. نهارك سعيد أيها السيد الكريم!.

توقف القوزاقي أمامهما، وقال بصوت بطيء رداً على تحية الجد:

ـ ونهاركم سعيد أنتم أيضاً!.

ومال على الشحاذين، وراح يحدق فيهما بعينيه الواسعتين المليئتين



غموضاً وهو يحك قفاه بصمت. راح لنكا يرقبه دهشاً. أما الجد فأخذ يطرف بعينيه، وينتظره أن يبدأ بالحديث، لكن القوزاقي ظل محافظاً على صمته. وأخيراً أخرج لسانه واجتهد أن يمسك به طرف شاربه. وعندما توصل إلى ذلك أدخل الشارب في فمه ومضغه مضغاً خفيفاً ثم لفظه وصرح في لهجة قاسية، قاطعاً حبل الصمت الذي كان قد بدأ يصبح مزعجاً:

ـ هيا! يجب أن تأتيا معي إلى مركز البوليس!.

انتفض الجد وسأل: «لِمَ»؟. وارتجف قلب لنكا.

يجب أن تأتيا معي. هذا أمر تلقيته ولا بد أن أنفذه. اتبعاني!.

وأشاح وجهه وبدأ المسير، لكنه ألقى خلفه نظرة فلاحظ أن الشحاذين لم يتحركا من مكانهما فصاح بهما في لهجة قاسية:

ـ هيا! ماذا تنتظران؟.

فوقف الجد ولنكا بسرعة، وسارا في أثره.

ركز الطفل بصره على الشيخ فلمح أسنانه تصطك ورأسه يرتجف.

وكان الجد يفتش في صدره، وهو لا يفتأ يدير النظر حوله في خوف ظاهر. فأدرك لنكا أن جدّه يخشى عاقبة فعلة ارتكبها، الأمر الذي سبق أن حدث في «طامان» منذ مدة قصيرة. سرت في جسمه رعدة أليمة عند تذكر مغامرة «طامان».

في تلك القرية، سرق الجد بياضات من فناء أحد المنازل لكنه فوجئ بالقبض عليه. تهكموا عليه وشتموه، بل وضربوه أيضاً، ثم طرد من القرية مع أن الليل كان يقترب. وكانت ليلة سوداء، كان عليه أن ينام على رمال أحد الشواطئ، فوق إحدى الروابي، والبحر يعوي طوال الليل



عواءً مخيفاً والرمل يئن خلال حرث الأمواج إياه... حتى مطلع الفجر، لم تفارق الدموع السخينة عيني الشيخ. في حكمه على نفسه بأنه لص وفي التماسه العفو من الله.

- لنكا!.

وانتفض لنكا كأنما تلقى ضربة فوق ظهره، ونظر إلى الجد ملياً.

كان هذا الأخير قد تشنج وجهه الهزيل واشتد شحوباً. كان يرتعد من رأسه إلى أخمصيه. أما القوزاقي فكان يسبقهما بعدة خطوات، وهو يدخن غليونه ويتلاعب بعصاه.

همس الجد بصوت لا يكاد يسمع:

- امسك، خذ... الق هذا خلف السياج، ولكن ميز المكان الذي ستلقيه فيه... حتى يمكننا أن نأخذه ثانية، فيما بعد!.

ودنا من حفيده وسلمه قطعة نسيج متكورة.

ابتعد لنكا، وارتعد من فرط الرعب وتمشت في أوصاله ودة مفاجئة، تقدم إلى حافة الطريق وكان يحدد معالمه سياج من الشجيرات الكثيفة: ثبت نظره على ظل القوزاقي الضخم القصير الملقى أمامه ومد يده واختلس نظرة سريعة إلى ما يمسكه فيها ثم ألقى خلف السياج قطعة النسيج.

ثم اختلط عليه الأمر...

انتشرت قطعة النسيج في سقوطها فأمكن للنكا أن يلمح شالاً موشى بالزهور استدعى إلى ذهنه على الفور صورة الطفلة الباكية. لاحت أمام عينيه فخسفت القوزاقي والجد وكل ما يحوطه، كأنها السحر المبين...



ولم يعد يتردد في أذني لنكا سوى صوت انتحاب الطفلة. لاح له أن ثمة دموعاً تتساقط على الأرض عند قدميه وتمنعه من الرؤية. فغمرت قلبه برودة قاتلة.

ثم دخل لنكا إلى مركز البوليس، في أثر جده. فتناهت إليه ضجة لم يستطع أو يرد فهمها، فقد كان خائر القوى. وتشابكت الأخيلة أمامه فرأى قوماً ينفضون فوق إحدى الموائد كل ما احتواه جراب الشيخ. وراحت كسر الخبز تتساقط وتثب في صوت خافت لا رنة له. كانت تنحني على المائدة رؤوس عديدة تغطيها قبعات عالية، وكانت تبدو حيناً متحدية ثائرة. وفجأة، قبض على الجد عملاقان قويان، فراح يدور حول نفسه كنحلة خشبية، محتجاً في صوت مختنق:

ـ لستم على حق في تصرفكم هذا أيها السادة الطيبون!.

ثم صرخ في لهجة حادة:

ـ إنني أشهد الله على أني بريء!.

تهاوى لنكا إلى أرضية الحجرة وأخذ ينتحب.

اتجهوا إليه وحملوه وأجلسوه على دكة وفتشوا أسماله البالية. ثم عمّ السكون فجأة: مات البكاء في حنجرة لنكا، وانقطع نحيب الجد، وسكت هدير الأصوات الثائرة ـ وكأنما بمعجزة.

صاح أحدهم: «لقد كذبت المعونة»! فأثر في لنكا هذا الصوت الرزين المليء بالغضب. لكن أصواتاً أخرى هتفت، وبها من الحقد الشيء الكثير:

ـ لعلهما أخفياها في مكان ما!.

ثم اختلطت صيحات الغضب من جديد. أحس لنكا أنهم يلكمون



رأسه بهذه الصيحات الصاخبة حتى إن أوصاله تخدرت وأغمي عليه. وفجأة لاح له كأن حفرة كبيرة سوداء تفغر فاها كالهوة السحيقة، فيسقط فيها ولا يدرك لها قراراً.

ولما فتح عينيه أحس برأسه يستند على ركبتي الجد وأبصر وجهه يميل عليه وقد ملأته التجاعيد والأحزان كما لم تملأه من قبل. كانت عينا الشيخ تختلجان من فرط الإعياء والخوف وتذرفان دموعاً سخينة كانت تتساقط على جبهة الطفل و«تزغزغ» خديه وعنقه.

ـ تشعر بتحسن يا صغيري العزيز؟ هيا نذهب من هنا! هيا نهرب! الحمد للّه أن أطلق سراحنا أولئك الملاعين!.

رفع لنكا رأسه فوق ركبتيّ وجلس بجواره. كان يشعر بالدوار كأن ثمة شيئاً يثقل رأسه حتى هيّء إليه أنها وشيكة السقوط فسندها بيديه وأخذ يترنح ويئن من فرط الألم.

ـ الصداع شديد يا حبيبي؟ هؤلاء الوحوش... عذبونا كثيراً! خنجر ضاع... بنت صغيرة فقدت شالها... فنكون نحن المسؤولين؟! كوننا شحاذين معناها أننا لصوص؟! آه! ما هو ذنبنا يا رب حتى تجازينا هكذا؟.

أصمّ صراخ الجدّ أذني لنكا، وأحس باللهيب يندلع في جوفه حتى إنه اضطر إلى الابتعاد عن الشيخ قليلاً.

تراجع خطوة إلى الوراء، وتفرس في وجه الشيخ آرخب فاعتقد أنه يقرأ الكذب على صفحة وجهه المجعد. فسرت الرعدة في بدنه وأدار نظره فيما حوله. وكانا قد حطا الرحال عند مخرج القرية، في ظل شجرة حور مقوسة الغصون، وكان الليل قد أرخى سدوله، والقمر يرتفع من الأفق وأشعته الفضية الخافتة تغمر البراري الشاسعة وتبديها أضيق مما هي بالنهار وأشد كآبة.



وعند أقاصي البراري، هناك حيث تلتقي بالسماء، كانت تتجمع سحب بلون البنفسج وترتفع نحو القبة الزرقاء فتحجب القمر وتلقي على المزارع ظلالاً سوداء.

تلاحمت هذه الظلال الداكنة واستطالت ثم راحت تزحف فوق الأرض إلا أنها لم تلبث أن انقشعت. وكان ثمة أصوات تتناهى من القرية حيث كانت تتناثر الأضواء وتبدو كأنها تتبادل الغمز مع النجوم المتلألئة المشعة بريقاً صافياً بلون الذهب.

ـ هيا يا حبيبي... يجب أن نذهب الآن!.

هكذا قال الجد. فسأله لنكا:

ـ لنسترح قليلاً.

كان يحب البراري. وأثناء سيرهما بالنهار كان يسره أن يسرح الطرف فيها حتى سمت الأفق، حيث ترتمي فيه السماء على صدر السهل الحنون... ولقد اعتقد أن ما يراه عند أقاصيها ليس إلا مدناً هائلة، مليئة بالعجائب، تزدحم بأشخاص هم من الطيبة والكرم بحيث لا يحتاج المرء أن يسألهم كسرة من الخبز، فهم يوزعونه من تلقاء أنفسهم على كل من يشاء... لكن البراري الشاسعة تنبسط أمام عينيه حتى تبدو له قرية لا تختلف بيوتها أو أهاليها عما شاهده من بيوت وأهالي في أماكن أخرى إذ ذاك اجتاحه الحزن **وأحس في زوال أوهامه نوعاً من الإساءة إلى شخصه.**

ولكن البراري تنبسط في اليوم التالي إلى آفاق بعيدة لا حدّ لها فيتجدد حلم لنكا في أنه توجد عند خط الأفق مدن أخرى وأناس آخرون خير من أولئك الذين يعيش بين ظهرانيهم.

راح يحدق في الأفق، حيث كانت تتراكم السحب كأنها الدخان



يتصاعد من آلاف المداخن التي تزخر بها مدينته المثالية حتى تاقت نفسه لرؤيتها.

لم يقطع أحلامه غير سعال الجد المكتوم. ثبت لنكا نظره عليه، كان الشيخ يلتقط أنفاسه بصعوبة، وكان وجهه مبللاً بالدموع. وحين غمره ضوء القمر، سقطت ظلال غريبة على أسماله البالية وعلى قلنسوته وحاجبيه ولحيته، وأكسبت وجهه ذا الفم المنقبض والعينين الزائغتين تعبيراً ينم عن الرعب والعسر. وما أن رآه لنكا على هذا الحال حتى استولى عليه شعور غريب ولم يتمالك نفسه من الابتعاد عن جدِّه مسافة أخرى.

قال الجد:

ـ ليكن! لنسترح قليلاً.

لكنه راح يبحث في صدره عن شيء، وهو يبتسم ابتسامة بلهاء.

أشاح لنكا وجهه، وعاد يتأمل الآفاق البعيدة. لكن الجد هتف فجأة في صوت منتشٍ بلذة الظفر:

ـ لنكا! حبيبي لنكا! انظر!.

ورغم السعال الذي كان يمزق صدره، قدم إلى حفيده شيئاً طويلاً لامعاً، وتمتم:

ـ إنه من الفضة... مصنوع من الفضة!... ويساوي خمسين روبلاً على الأقل!.

وسرى في بدنه وشفتيه ارتعاش شره مؤلم، فتشنجت عضلات وجهه.

ارتعد لنكا ودفع اليد التي امتدت نحوه. توسل وهو يلتفت حواليه:

ـ اخف هذا بسرعة! آه يا جدي! اخفه!.

ـ أنت خائف يا عبيط؟ خائف يا حبيبي؟... أنا نظرت من النافذة...



فرأيته معلقاً... أخذته وأخفيته في صدري، ثم ألقيته بعد ذلك خلف السياج. وعند مغادرتنا القرية، تظاهرت بفقد قلنسوتي... وملت عليه والتقطته... ما أغبى أولئك الناس! والشال أيضاً، لقد أخذته ثانية! ها هو!.

وأخرج الجد بيديه المرتعشتين الشال من تحت أسماله، ونفضه كي يريه للنكا...

وهنا يبدو للطفل كأن ستاراً يرتفع أمام عينيه، فيتابع في مخيلته المشهد التالي: إنهما يقطعان، هو وجده، شوارع القرية محاولين ألا تقع عليهما أعين المارة. يسيران والرعب يملأهما، ولنكا يشعر بأن الناس محقون لو يضربونهما ويشتمونهما ويبصقون على وجهيهما. وتغلف سحابة رقيقة شجيرات السياج والمنازل والأشجار المرتعشة أمام الرياح العاصفة، وتنتشر في الجو أصوات مدوية. إن لنكا ليشعر أن هذا العسر لا حدَّ له، ولا يمكنه رؤية مخرج القرية ولا السهول التي تحوطها إنهما محاصران وسط حشد من البيوت المتمايلة، فهي تتقدم صوبهما كأنما لتدهمهما لكنها لا تلبث أن ترتد ضاحكة في خبث وكأن نوافذها قد استحالت إلى عيون سوداء، وفجأة يصيح من إحدى هذه النوافذ صوت واضح النبرات: لصوص! لصوص! لصوص: تعال أيها اللص الصغير!.

يختلس لنكا نظرة إلى هذه النافذة فيلمح الطفلة نفسها التي رآها تبكي بالنهار، والتي كان يسره كثيراً أن يبسط عليها حمايته... وإنها لتفهم ما يدور بخلده فتخرج له لسانها، وهي ترمي لنكا بنظرة من عينيها الزرقاوين، ثاقبة مستهجنة، مثل وخز الإبرة.

يتجدد هذا المنظر في عقل الطفل، ثم لا يلبث أن يختفي. وينظر لنكا إلى جدّه بابتسامة خبيثة...



كان الشيخ لما يزل يتحدث ويثرثر دون انقطاع: لا يتوقف إلا ليسعل. وراح يدعك يديه، مبتسماً في فرح ويمسح قطرات العرق الغزير الذي كان يسيل على صفحة وجهه المجعد.

حجب القمر سحابة كثيفة مهلهلة... لم يعد لنكا يرى وجه جدّه وإنما عاوده خيال الطفلة الباكية. جمع بين صورتها وبين صورة الجد، وقارن بينهما في عقله: الشيخ العاجز الطماع في أسماله البالية، والطفلة التي سلبها... الطفلة النضرة البريئة اللطيفة التي بكت بكاءً حاراً. وبدا له الجد، بعد هذه المقارنة، شخصاً عديم النفع، يشبه في ميله إلى الشر «كوكتشي» الذي تتحدث عنه الأساطير.

أهذا ممكن؟ كيف طاوعته نفسه أن يسيء إليها؟

أما الجد فكان لا يني عن الحديث:

ـ لو أمكنني جمع مائة روبل، لمت مستريح البال.

وهنا انفجرت ثورة لنكا فصرخ قائلاً:

ـ اسكت! العمر واحد... لكنك لا تموت... أنت تسرق فقط!

ثم نهض وقال وهو يرتجف:

ـ أنت نشال كبير! هوه! هوه!.

ولوح لنكا في وجه جدّه بقبضته الصغيرة المرتعشة وقد عراه الذهول، ثم جلس واستطرد قائلاً في صوت خفيض:

ـ لقد سرقت طفلة... هذه ليست مسألة بسيطة! أيسرق رجل عجوز مثلك! ربنا لن يسامحك أبداً.

وفجأة غلف البراري ضوء مرتعش مائل للزرقة، يبهر البصر ويبدو كأنما يتقهقر إلى سمت الأفق. فتمزقت حجب الظلام وانقشعت برهة قصيرة.



ثم دوّى الرعد وراح يتدحرج ممتداً فوق البراري، فسرى الارتعاش في قبة السماء والسحب فيها حائرة لا تدري أين المفر، والقمر غارق بين ظلالها.

عاد الظلام... وهناك، على بعد شاسع، ومض شعاع من البرق كأنه يتوعد وعيداً صامتاً ثم لم يلبث أن تلاه ثان فقصف الرعد من جديد. وساد السكون بعد ذلك كأنه سيطول إلى الأبد.

رسم لنكا علامة الصليب. أما الجدُّ فكان لا يزال يجلس جامداً صامتاً كأنه جزء من الشجرة التي يستند بظهره إليها.

تمتم لنكا جزعاً من قرب عودة الرعد:

ـ جدي! هيا نذهب إلى القرية.

ارتعشت السماء مرة أخرى واشتغل بها اللهيب الأزرق، ثم دوت قعقعة هائلة كأنما تتساقط فوق الأرض آلاف من قضبان الحديد المتلاطمة:

صرخ لنكا: «جدي»!. لكن قصف الرعد طغى على صوته فلم يكن له إلا رنين الجرس الصغير المشروخ.

قال الجد دون أن تصدر عنه نأمة:

ـ إيه يا حفيدي؟ خائف؟.

كان صوته واهناً ينم عن الألم، وعن التهكم، وعن الضيق. شعر لنكا أن من يتكلم شخص غريب عنه.

راح المطر ينهمر وكأن وقع قطراته بيان خطير يهمس به في الآذان.

بعيداً... كانت جلبة المطر تتضاعف في أصوات مبهمة كما لو أن فرشاة هائلة تدعك سطح الأرض الجاف، أما عن قرب... فقد كان لوقع كل قطرة صوت أجوف.



اقترب قصف الرعد، واشتد وميض البرق. دمدم الجد في صوت يخنقه الغضب:

ـ لن أذهب إلى القرية! ليت الأمطار! تغرقني! ليت الصاعقة تسحقني!. ما أنا إلا كلب عجوز ولص كبير. لا، لا، لن أذهب! اذهب وحدك! ها هي القرية هناك! اذهب إليها... إنني أمنعك من البقاء هنا... اذهب! اذهب! اذهب! اذهب!.

وصرخ الجد في صوت مختنق مبحوح. اقترب منه لنكا وقال بصوت باكٍ:

ـ سامحني يا جدي!.

ـ آه! لن أذهب معك! لا يمكنني أن أسامحك!... سبع سنين وأنا أعتني بك حتى الموت!... أجل، فإنني أحتضر... وأخيراً تقول لي أنا لص! لأجل من أسرق؟... لأجلك أنت؟ كل ما عملته كان من أجلك أنت... وفرت، واشتغلت، وسرقت... هذا كله لأجلك وربنا عالم بهذا كله... إنه يعلم أني سرقت: وسوف يجازيني... بل إنه لن يحاسب كلباً هرماً مثلي على السرقة. لقد عاقبني وانتهى الأمر؟ سبحانك يا ربي! إنك انتقمت مني انتقاماً قاسياً!. أجل!. إنك أمتني بيد هذا الطفل!... وإني لأستحق ذلك يا رب! أنت عادل أيها المخلص!... وأنا في طريقي إليك فارحم روحي: آه! أه!.

وانقلب صوت الجد إلى نوع من العواء الحاد فألقى الرعب في قلب لنكا.

راح الرعد يرج البراري والسماء وينتشر مدوياً في قصف عاجل، وكأن كل قصف منه نذير إلى الأرض بنبأ هام. كان يتراكم لينفجر فجأة. وكان البرق ينتشر في سماء مترجرجة ممزقاً حجب الغمام، وكان السهل يرتجف: تارة يشتعل في ضوء مائل للزرقة، وتارة تبتلعه ظلمات حالكة



كثيفة فيبدو كأنه يتقلص، وطوراً تشتعل في الأفق ألسنة اللهيب. ولاح كأن أرجاء البراري تتقهقر فراراً من غضب الطبيعة وثورتها.

راح المطر يتساقط قطرات رفيعة تلمع في ضوء البرق كالفولاذ وتقف حائلاً أمام أنوار القرية، تلك الأنوار المضيافة المرتعشة.

تملك لنكا رعب وهلع وحسرة مريرة راحت تثير فيه تأنيب الضمير لإساءته إلى جدّه. ومع أن قطرات المطر كانت تتساقط من رأسه المبلل فتملأ عينيه فإنه ظل محملقاً لا يجرؤ على إغماضها، وهو يتسمع صوت جدّه المختنق وسط دوامة الأصوات الهائلة.

أدرك الطفل أن جدّه قد كف عن الحركة، ولاح له أن نهايته، هو نفسه، قد دنت وأنه سيهلك تاركاً الشيخ وحده. فألفى نفسه يقترب من جده شيئاً فشيئاً ثم يلمس مرفقه. وإذ ذاك سرت الرعدة في بدنه وتوقع شيئاً مرعباً.

مزق البرق حجب الغمام فألقى الضوء على هذين المخلوقين الملتصقين أحدهما بالآخر، لا يشغلان مساحة كبيرة، وقد انتابهما التشنج، وقطرات الماء تتساقط عليهما من أعالي الأشجار الكثيفة الأوراق.

رفع الجد يديه نحو السماء وتمتم بضع كلمات غير مفهومة، لكأنما كان يختنق من فرط إعيائه. نظر لنكا إلى وجهه فصرخ من الهول. فقد بدا له وجه الشيخ آرخب ـ في ضوء القمر الشاحب ـ كأنه وجه ميت. كانت تلوح في عينيه الشاخصتين المليئتين انزعاجاً نظرة جنونية، فدفن رأسه بين ركبتي الجد صارخاً:

ـ جدي هيا بنا.

فمال عليه هذا الأخير واحتضنه بيديه الهزيلتين المعروقتين، وضمه إلى صدره بشدة. وفجأة، أطلق صرخة مؤلمة كأنه ذئب يقع في الفخ.



أطار الرعب صواب لنكا عند سماعه هذا النداء اليائس باسمه، فتخلص من حضن الجد وانطلق هارباً كالسهم. لكن ومض البرق خطف بصره فسقط على الأرض، وما لبث أن نهض وابتلعته ظلمات الليل الحالكة التي لم يكن يبددها التماع الصاعقة إلا ليلتئم شملها ثانية فتطبق على الطفل المذعور.

راح الرعد يزمجر والبرق ينتشر ويشتد، والمطر يتساقط في صوت رتيب حزين يشبه صوت ارتطام الثلج. كأن البراري ما عرفت قط إلا وقع المطر وقرقعته الصاعقة وقصف الرعب الثائر.

* * *

في صباح اليوم التالي، عاد إلى القرية أطفال كانوا يلهون عند أطرافها، وراحوا يجرون في الأزقة منذرين السكان. صرحوا بأنهم قد شاهدوا الشحاذ العجوز ممدداً تحت شجرة حور، وأنه لا بدّ قد ذبح فقد كان ثمة خنجر إلى جواره.

لكن القوزاق ذهبوا لمعاينة الحادث فاكتشفوا أن هذه التفاصيل لا أساس لها من الصحة...

كان الشيخ لما يزل حياً، فعندما اقتربوا منه حاول أن ينهض لكن قواه خانته. وتبيّن لهم أن لسانه قد أصيب بالشلل: فقد كان يسأل الناس بنظرات عينيه الغائرتين ويفتش بين حشدهم عن شخص معين لكنه لم يعثر على ضالته المنشودة، ولم يظفر من أحد بجواب.

مات في مساء ذلك اليوم. ودفنوه تحت شجرة الحور التي اكتشفت جثته بجانبها. لقد كان لصاً، كما أنه قضى نحبه دون أن يتمم واجباته الدينية، ولذا ظنوا أن لا حق له في أن يرقد في مقبرة.



عثروا على لنكا بعد مضي أيام... ففي ضواحي القرية، كان يحوم فوق أحد الخنادق سرب من الغربان، ولما استطلع الأهالي السبب اكتشفوا الطفل ممدداً وذراعاه ممدودان، منكفئاً على وجهه في الوحل الذي جرفته الأمطار إلى قاع الخندق.

قرروا في بادئ الأمر دفنه في مقبرة نظراً لأنه طفل، ولكنهم فكروا ملياً فرأوا أن يدفن إلى جوار جدّه، تحت شجرة الحور نفسها. وعلموا موضع لحدهما بربوة شيدوا فوقها صليباً من الحجر...




Arab_Books

الفهرس




Arab_Books


Arab_Books

T H E S L A V E R Y

مكسيم غوركي

العبودية

لعلك توافقني في الرأي حين أقول: إن غاية الأدب هي أن يعين الإنسان على: أن يفهم بنفسه، وأن يؤمن بنفسه، وينمي فيه الطموح إلى الحقيقة، وأن يكافح نوازع الشر في طبيعة البشر، وأن يرشده إلى جانب الخير فيهم، وأن يستثير في نفوسهم جانب الطيبة، والغضب لوقوع الشر، والشجاعة كيما يصبح الناس أقوياء عن سماحة خلق ويستطيعون إثراء حياتهم الروحية بكل ما هو جميل...

ذلك هو أسلوبي في التفكير... حقاً، إنه لا يبلغ درجة الكمال، فإن هو إلا مجرد تخطيط عام... املأه إذن بكل ما من شأنه أن يثري الحياة، ثم أنبئني أنحن في الرأي متفقان؟

مكسيم غوركي




ISBN 978-1-7732209-8-7
9 781773 220987